دولة المتسوِّلين

رواية

للدكتور خليل محمد إبراهيم

الناشر

دار الآفاق العربية

ابراهيم، خليل محمد
دولـــة المـــتسولين
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2017
200 ص ، 20 سم

1- القصص العربية .

أ. العنوان 813

تدمك: 0 – 402 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 26971 / 2016
الطبعة الأولى
1438هـ / 2017 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

مقدمة

في الشهر الثاني عشر من عام 2015؛ أقامت منظمة (إبصار) التونسية للمكفوفين؛ مهرجان الموسيقيين المكفوفين الدولي الأول، وكُنْتُ مشاركا فيه ممن مثلوا (العراق)، فكانت جلسات حميمة فاتنة، بين المشاركين في المهرجان، وقد وصل الحديث إلى رواية (دولة المتسولين)/ التي أهديت بعضهم؛ نسخا منها\ فكان التعليق الأول على عنوانها قولهم الذي معناه:- "كل دولنا متسوّلة".

هذا ما يبدو أن العنوان أوحى به، وهذا ما يبدو أنه تمَّ الاتفاق عليه، وهذا يعني أن تلك الدول تتسوّل القروض والهبات؛ من الدول الثرية، وهو يعني أنها دول فقيرة.

وواقع الحال؛ أن هذه الفكرة؛ لم تخطر على ذهني؛ يوم فكَّرْتُ في كتابة هذه الرواية، ولا خطرت على بالي؛ قبل هذا الذي آلَمَنا ضاحكين، فكثيرا ما يكون الضحك معبِّرا عن أقسى الألم.

من هنا قد يسألني متسائل:- " فما الذي أوحى لك بهذه الرواية؟"

والجْواب عن هذا السؤال، لايسهل أن يكون واحدا، كما لا يسهل أن يكون دقيقا، فالمؤكد أن أهدافي من الرواية؛ تطوّرت بتطوُّرها، لكن من أين لي ثيمتها؟!.

هذا هو السؤال الذي يمكنني أن أجيب عنه، ليكون للنقاد الأفاضل، ولجمهور القراء الكرام؛ ما يقولونه، بعد قراءة ثيمة الرواية، وتصور التطوُّر الذي طرأ على الرواية.

لقد تربيْت/ وقضيْتُ جانبا كبيرا من عمري\ على التراث الشعبي، بل انتقلْتُ منه إلى تخصصي التراثي، واهتماماتي التراثية.

ومن التراث الشعبي الذي روتْهُ لي جدتي؛ ما رويْتُه عنها؛ محلَلا؛ حكاية شعبية؛ كانت جدتي تسميها:- "حكاية المجدِّيّة والأمير" لِأرويَها تحت عنوان:- (حكاية شعبية وتحليل؛ ساندريلا عراقية؛ المتسوّلة والأمير.) لِيرويَها العدد الثاني؛ عام 2009 من مجلة (التراث الشعبي) العراقية الغراء.

تلك الحكاية الشعبية التي صيَّرْتُها تمهيدا لهذه الرواية؛ في طبعتها الثانية.

هذه الحكاية الشعبية (المتسولة والأمير)؛ عاشتْ معي سنين، لا أعرف عددها، ثم كتبْتُها -في ما أظن- في عام 2006، لِتتكرَّم مجلة (التراث الشعبي) بنشرها؛ وقت نشرتْها، فهذه الحكاية؛ قديمة العهد في فكري، وقد تطوَّرتْ بطلتها في ذهني، حتى شابهتْ (ساندريلا)، بل صارت (ساندريلا) -عندي- بغض النظر عمَن يوافقني الرأي أو يُخالفني، فلكل رأيه، وهو حُرٌّ في توصُّلاته، لكن إلى أن كتبْتُ ما نشرتْه (التراث الشعبي) الغراء؛ لم تتطوَّر الفكرة عندي، ولم تزِدْ عمّا في هذه الحكاية الشعبية.

على أن الأحداث الكثيرة التي مرَّتْ ب(العراق) خاصة، وببلاد العرب عامة، وبالعالم في الأعمّ؛ دفعتْني إلى التفكير بطريقة، للتعبير عمّا جرى ويجري، فإذا ب(المتسوِّلة والأمير)؛ تقفز إلى ذهني، فماذا لو تزوَّج الأمير المتسوِّلة؟

هذا السؤال؛ أجابت عنه الحكاية الشعبية، فقد انتهى زواجهما إلى الطلاق، بتنبُّه الأمير؛ إلى ما تفعله المتسولة، ورفضه إياه.

ولكن، ماذا لو حاول المتسوّلون استغلال الأوضاع والسيطرة على الدولة؟!.

هذا ما حاولْتُ تصوُّره، واقترحْتُ على الرواية تصويره، وهو ما سيراه قراء الرواية الكرام، ونقادها الأفاضل، ليرَوا فيه رأيهم السديد.

ثم ما الذي يجري في (العراق)، والبلاد العربية؟

فعدا عن أنها دول تزخر بالثروات الثقافية، ويمشي أبناؤها على الثروات المادية والطبيعية إلا أنها لا تفكِّر في غير الحروب، والتآمر الداخلي والخارجي، والاستجداء من الدول الثرية.

وحتى الدول الثرية منها، فهي تستثمر/ غالبا\ في الحجر، أكثر من استثمارها في البشر.

ثم أن مدّا دينيا؛ طغى على حكام المنطقة، فمَن هُم هؤلاء الحكام؟!

إنهم -في الأصل- رجال يعيشون على الصدقات، فهُم يعيشون على الزكاة؛ ابتداءً من تعلمهم الفقه، وحتى يصير الواحد منهم؛ ما يصير إليه، فهو من آكلي الصدقات.

وحين يُمسك وظيفة ما، فإنه يتصوّر أن مالها يُشبه خيرات المسجد أو رزق الفقيه؛ يتصرّف به كما يُحبّ، بلا حسيب أو رقيب؛ دون انتباه إلى أن -الله تعالى- يرى الصدقة؛ ما يُشبه صابونا يُنظف أدران الناس، ألا ترى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ التوبة: ١٠٣،

إذن -فالله تعالى- يرى أن في الأثرياء أوضارا ينبغي تطهيرهم منها، وتزكيتهم بالصدقات، فالزكاة -على هذا- تشبه الصابون الذي يتنظّف الإنسان به، فهل يشرب الإنسان العاقل -غير المضطر- ماء الصابون الذي يتطهَّر به؟!

إن الفقراء مضطرّون لأخذ الزكاة.

أما الأغنياء عن الزكاة، فلا يحقُّ لهم أخذها أيا كانوا، بل ينبغي لَمن تفيض أمواله عن حاجته؛ أن يتصدَّقَ أو يُزكي.

وواضح من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة:٦٠، أن الزكاة جزء من الصدقات، أو نوع منها، وهو ما فهمه الفقهاء؛ حين عدّوا مصارف الزكاة، ما جاء من مصارف الصدقات في الآية 60 من سورة التوبة الكريمة؛ المتقدمة.

ولو لم يرَ -الله تعالى- أن أموال الزكاة "الصدقات" من أوضار الناس، ما أعفَّ عنها مستحقي الخمس؛ المنتسبين إلى الرسول (صلعم) بشكل أو بآخر.

وبعض آكلي الصدقات؛ يعملون في المساجد، ويُعدّون من العاملين على الزكاة؛ المستحقين للأكل منها، فهُم متسوِّلون *متبطّلون* باسم الدين، وقد أظهر الكثير منهم؛ حين وصلوا إلى السلطة "في الماضي والحاضر" من الفساد والفسق؛ ما يحسدهم عليه الكافر من الظالمين، بل كثيرا ما استثمرهم الظالمون، فهم قادرون بـ(الصناعة)؛ على تحليل الحرام، وتحريم الحلال، وهو ما يفوت الكثير من الناس الاعتياديين؛ ممن تغريهم الملابس، وتبهرهم مقالات السوء؛ المبررة لأخطاء المخطئين.

لكل ما تقدم –ولغيره– رأيْتُ أن أستثمر هذه الثيمة –الحكاية الشعبية العراقية– مقنِّعا إياها بالقناع الأندلسي؛ الذي أعرفه معرفة مناسبة، بحكم اختصاصي العلمي، واهتمامي الشخصي به، ولأن ما يجري في بلادنا؛ قد جرى ما يُشبهه في الأندلس "ولا سيما في فترات الطوائف" فلم تكُنْ دولة المتسولين؛ روايتي تاريخية؛ تعتمد الأندلس، وما وقع فيها فعلا، لكنها عبرت عن "المتوقع الممكن" فالفارق بين المؤرخ والأديب الواقعي؛ أن المؤرخ؛ يؤرخ الوقائع كما وقعت، أو كما وصلته، أو كما أراد منه أسياده أن يقول.

أما الأديب الواقعي، فهو مَن يتصوَّر الممكن المتوقّع، فيكتبه؛ معبرا عن الواقع الذي يُريد التعبير عنه، بالمتوقع الممكن؛ ناقدا ذلك الواقع؛ من خلال ذلك المتوقع، فصحيح أن في الرواية (قرطبة) و(الوادي الكبير) –نهر (قرطبة)–، وصحيح أن (ابن حزم)؛ موجود في الرواية، ومعه جانب من حكاية رواها في (طوق الحمامة)، لكن أين هذا الواقع التاريخي؛ مما في الرواية؟!.

إن ألفاظا وتعبيرات؛ تتضمنها الرواية مثل (لوري) و(حقوق الإنسان) و(بارود) تمنع من إرادة ما في الأندلس القديمة.

بعضهم تصوَّر أنني قنَّعْتُ الرواية ب(الأندلس)، وزيَّنْتُها بشيء من شعرها؛ خوفا من السلطات، وواقع الحال أن هذا لم يكُنْ مما خطر لي على بال، لكنني علمْتُ أن القارئ النبيه، والناقد الواعي، سينتبهان إلى أنني أتكلّم عن تاريخ (العراق)، وبعض البلاد العربية الحديث، لو كانت الرواية؛ سياسية

حديثة؛ تُسمّي الأشياء بأسمائها، والمؤكد أن لكل منا في هذا الحاكم أو ذاك الفعل من أفعاله أو ردود أفعاله؛ موقفا مختلفا عن موقف غيره، فهذا مما سيشتت الأذهان، ويصرفها لمناقشة الفعل ورد الفعل، ورأيه فيهما، وفي الفاعل ومَن رد عليه الفعل، فعند ذاك، سيضيع جهدي عبثا؛ في قضايا سياسية؛ يمكنني أن أكتب عنها مقالات سهلة، لا تأخذ مني وقتا ولا جهدا روائيا عسيرا.

ثم أن للأديب؛ أن يركب المركب الأدبي الذي يُناسب الفكرة التي يُعبِّر عنها، وهو ما فعله كاتب دولة المتسولين، وإنما يصل الكاتب إلى متلقيه بالطريقة التي تُناسب الكاتب وموضوعه، لأن أي أسلوب يتَّخذه الكاتب للكتابة، فسيجد مَن يرضى عنه، ومَن يرفضه، فماذا يفعل الأديب غير ركوب المركب الأدبي الذي يُناسب الموضوع في نظره؟!.

ولماذا يركب الأديب؛ مركبا أدبيا آخر؛ لإنجاز موضوع آخر؟!.

أليس لأن المركب الآخر؛ مناسب للموضوع الآخر؟!.

هكذا أحببْتُ أن أطلع على قراء الطبعة الثانية من هذه الرواية، بثلاثة أشياء؛ تفتح الآفاق أمام قراء الرواية، ونقادها؛ سواء كانوا من السياسيين أم لم يكونوا، وهذه الأشياء؛ هي:-

(1) **هذه المقدمة**.

(2) **التمهيد الذي نشرته (التراث الشعبي) الغراء**.

(3) **جانب من حياة الكاتب الثقافية والتراثية**.

هذه الأمور التي عريتْ منها الطبعة الأولى، ومَن يدري ماذا سيُضاف إلى الطبعات التالية؛ إذا يسر -الله تعالى- لهذه الرواية؛ أن تُطبَع طبعات أخرى، وإذا منح -الله تعالى- كاتبها؛ شيئا من العمر، والقدرة على العمل؟

والله الموفق إلى ما فيه الصواب.

والله من وراء القصد،،،،،

الدكتور

خليل محمد إبراهيم

بعد منتصف ليلة 3/ 1/ 2016

تمهيد
حكاية شعبية وتعليق [1]
سندريلا عراقية ـ المتسولة والأمير

[1] منشور في مجلة التراث الشعبي العراقية؛ العدد الثاني لسنة 2009 ص125– 126

كانت المتسوِّلة الشابة؛ تخطو كل يوم؛ خطواتها المعتادة المتئدة؛ عند باب قصر الأمير، وقصور حاشيته المحيطة به، فتنال من خدمهم بِرا من الطعام؛ يزيد عن حاجتهم؛ تأخذه لأهلها؛ يتغذون عليه أو يبيعونه.

في يوم من الأيام؛ كان الأمير يتخطّى في الحديقة -حديقة القصر- حينما خطرت بخطواتها المتئدة؛ أمام باب القصر؛ تسأل الصدقة والرحمة؛ على عادة إحدى الخادمات العطوفات؛ أخرجت لها شيئا من الطعام؛ الأمير؛ رأى المتسوِّلة الشابة، وهي تخطر في الطريق؛ متغنجة؛ متغنية بالدعاء للأمير المنتصر؛ مشرقة بوجهها، كما تشرق شمس الصباح؛ على حديقة غناء؛ دعا الأمير الفتاة الفقيرة؛ نظر إليها جيدا؛ استعرض حركاتها؛ وجد أنها فاتنة فعلا، أحب أن يتزوجها؛ من بين كل بنات الأمراء المجاورين، والحاشية المحاذين والوزراء المتنافسين؛ على أن يخطب الأمير؛ إحدى بناتهم، فلم تعترض الفتاة، لكنها اشترطت على الأمير-لقبول الزواج منه- شرطا واحدا؛ استغرب الأمير أن تشترط متسوِّلة عليه شرطا لكي تقبل الزواج منه، ثم فكَّر في أنها تطلب مهرا غاليا أو تطلب عملا لأحد أهلها أو ما إلى ذلك مما يحتاجه الفقراء؛ مع أنه رأى الشرط صعبا، لكنه رأى أن تنفيذ اشتراطها -لو كان في هذه الحدود- فليس صعبا، واستفسر منها عن شرطها فأجابته أن يسمح لها -إذا تزوجا- أن تأكل في غرفة لوحدها؛ استغرب هذا الشرط العجيب (تأكل في غرفة لوحدها؟!)

(اجل، وتكون مغلقة عليها، وهي التي تغلقها)؛ مع أن هذا الشرط غريب، إلا أنه ليس صعبا، لتأكل وحدها، وتمَّ الزواج، وتم تنفيذ هذا الشرط

العجيب؛ فحين حضر الإفطار؛ ذكّرت زوجها الأمير بالشرط الذي كان بينهما، فترك الغرفة؛ مع أنهما في صباحية الزفاف، وتركها تأكل وحدها؛ هذا ما حصل في الغداء، وما حصل في وجبة العشاء كذلك، وفي كل يوم جاء بعد ذلك اليوم؛ هكذا مرت الأيام بحلوها ومرها على الزوجين المتعايشين -الأمير، والمتسوِّلة التي صارت أميرة- لم يتخلّف ذلك في أي وقت؛ إن قام عند وقت الطعام؛ كان هذا طبيعيا، وإن لم يقم -ناسيا أو متناسيا- ذكَّرته بالشرط، فقام.

في يوم من الأيام؛ ضاق الأمير بهذا الأمر ذرعا، ففكَّر في حيلة يعرف بها سبب امتناعها عن الأكل معه أو مع غيره؛ صنع في الغرفة التي تأكل فيها عادة؛ ما يمكنه من النظر إليها وهي تأكل، وما يمكنه من سماع ما تقول، فلما صار وقت الطعام، وخرج من عندها استنادا إلى الشرط؛ صار ينظر إلى ما تصنع، ويسمع ما تقول، فإذا بها تقطِّع الخبز لقما، وتضعه في أماكن متعددة، ثم تقول كلماتها المعتادة وهي تتسوّل: (المال مال الله، والسخي حبيب الله؛ أعطوني مما أعطاكم الله) ثم تأخذ شيئا من الخبز، وتفعل مثل هذا في بقية لقم الخبز، وفي بقية الطعام، فإذا ما انتهت من هذا؛ أعادته إلى صينية الطعام الأميرية، وجلست على الأرض تأكل، كما يأكل المتسوِّلون، فلما رأى الأمير ذلك؛ شتمها وقرر أن يطلقها، لأنها لم تتخلَّ عن حبها للتسوُّل.

هكذا روت جدتي لي هذه الحكاية أو قريبا منها مرارا وتكرارا، وكانت تحب أن تقرر في ذهني أن صاحب الطبيعة، لا يتخلّى عن طبيعته، بأسلوب تربوي، وحين كبرت، أعادت عليَّ هذه الحكاية مرة أخرى -وكثيرا ما كانت تعيدها مثل غيرها من الحكايات إذا كان هناك سبب لحكايتها- قلت لها مرة استفزازا،

بغية معرفة الهدف المتصور من هذه الحكاية: (لعلها تريد أن تتذكَّر فقرها كي تشكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىَ على نعمته عليها) فأنكرت ذلك بإصرار، وكأنها تريد أن تصب في فكري أن (صاحب العادة، لا يتخلى عن عادته)، وكأن الحكاية حقيقية قد جرت، وأنه لا يمكن تغيير شيء منها حتى مجرد الهدف، فهكذا كانت التربية، وهكذا كان للقصة؛ هدف تربوي، ووظيفة تعليمية.

ويبدو لي أن هذه القصة؛ مصداق من مصاديق المثل الشعبي: (عادة ال بالبدن مَيغيِّرَة غير الكفن).

أما أنا، فقد تصورت –إلى جانب الهدف التعليمي من الحكاية– أنها حكاية تعبر عن سندريلا عراقية معكوسة النتائج لاختلاف تصور المبدع الشعبي العراقي للقصة عن تصور المبدع الإيطالي لها، و لاختلاف أهدافهما.

دولة المتسولين

مجلس المتسوِّلين

اعتادوا أن يلتقوا مساء كل يوم بعد العشاء؛ يتحدثون؛ يتندرون بما جرى لكل منهم هذا اليوم؛ أحلى صدقة؛ أغرب صدقة؛ ألطف صدقة...الخ، ولكي يعرِّف أول من يحضر الاجتماع بحضوره، وأن الاجتماع؛ على وشك أن يبدأ أو ينبغي أن يبدأ؛ كان أول الحاضرين يقول: (الله كريم؛ خبزة ولحمة)؛ يقولها غناءً مع التصفيق، فإذا حضر آخر شاركه الغناء أو التصفيق أو شاركه في كلا الأمرين، وهكذا، حتى يجتمع الجميع أو يشعرون بأن أحدهم لا يحضر أو لم يحضر لسبب أو لآخر، فإذا كان مرضا أو خلافا مع الزوج؛ ذهبوا عادوا المريض أو حاولوا إصلاح ذات البين، لكن مثل هذه الزيارة؛ مكلفة لمن يُزار، لذا فلا يغيب عن هذا اللقاء إلا من كان معذورا فعلا، بدأ لقاء الليلة، بحضور شيخ المتسوِّلين أولا، وهو ما لا يحدث إلا قليلا؛ بدأ كلمة السر: (الله كريم؛ خبزة ولحمة)، وبدؤوا التدفُّق، لابد أن في جدول أعمال الليلة؛ شيئا مهما، وازداد المتغنون والمصفقون، واكتمل المجتمعون كلهم؛ وبدؤوا الحديث؛ (أغرب صدقة مرت عليَّ في حياتي؛ مرت اليوم، لقد أعطاني أحدهم ورقة نقود مشقوقة نصفين، بعد أن أوشك أن يسقط بيده نظارتي السوداء، لولا رعاية الله، لانكشف سري)؛ (ألم أقل لك ألف مرة، دعك من النظارة السوداء، ففقء العين أأمن؟!.

- أنت لا تستجيب؛ ما الذي سيضرك من فقء عينك أو صلم أذنك؟!
- هل ستصبح مطربا بعد الستين؟!.
- وماذا يمنع؟!.

- فقء العين لا يضر في الطرب والغناء، بل إن الكثير من المغنين والموسيقيين من العميان كم تريد أن أذكر لك منهم؟!.
- ألم يكن الأعشى ميمون بن قيس؛ أعمى أو شبه أعمى؟!.
- ألم يكن أبو زكار الأعمى؛ موسيقياً أعمى؟!.
- لماذا عرّفوه بالأعمى؟!.
- أليس لعماه؟!.
- والطرش؛ هل يضير الموسيقي الحاذق؟!.
- ألم يكن بيتهوفن أطرش؟!.
- أما الزواج، فأفضل من ترضى به متسوّلة؛ زوج معاق، وأين أنت من الزواج؟!.
- لو فكّرت فيه مجرّد تفكير، لقتلتك أم الخير، ولساعدها على قتلك أولادها؛ تأتيها بشريكة، وتأتيهم بشريك في ميراثهم؟!.
- أيتسولون ثم يجعلون مالهم في فم امرأة غريبة، وطفل ملعون؟!).

(اخرس يا أخي، وكُنْ أنت معاقا بالخرس، كأنك شيطان رجيم؛ تغري بالأذى؛ ما أقساك! وما أقذر مهنتك التي تعيش عليها، لأحدثك بحادثة حصلت لي اليوم، فقد اعتدْت أن أدق باب رجل أعمى؛ أتسول منه، وقد اعتاد أن يعطيني ما يعطيني، وكنت أعتقد أنه لا يعرف أنني سوي؛ في هذا اليوم؛ دفع لي الصدقة، لكن رتاج الباب سقط من يده؛ لم يرَ مكانه طبعاً فناداني وطلب إليَ أن أعطيه الرتاج، فعلمت أنه يدفع لي الصدقة غير مخدوع، فلماذا

أعوق نفسي من أجل التسول؟!)؛ (عجيب أوصلت بك القدرة على التسول أن تتسول من أعمى؟!)؛ (سوي يتسول من أعمى)!.

أول مرة تحدث في تأريخ التسول)؛ (أنا أفضل شحاذ في الأندلس؛ آخذ اللقمة من فم آكلها ولو كان شحاذا)؛ ضحكوا وقال أحدهم: (دعوه في ما هو فيه، وليحدثنا عما فعله في هذه الورقة النقدية المشقوقة؟!لا ينبغي رميها)؛ (وكيف أرمي نعمة الله؟!، لقد لصقتها باللاصق الذي عندي للأوراق الممزقة بعض الشيء، أما ورقة مقسومة نصفين، فهذه أول مرة أراها)؛ (ليس هذا هو المهم؛ المهم ألا تكون نصفين لورقتين مختلفتين، وهنا تكون الطامة الكبرى)؛ (ليس هذا مهما، سأضمها إلى الأوراق المالية التي أضعها في المصرف، وستفوت الموظفة الجميلة، التي تغازلني كلما وصلت المصرف، ووضعت في حسابي شيئا من المال؛ أصحاب البدل المتعطرون؛ متعطلون، لا يملكون ما نملك من المال، لذا فهي تفضلني على أفضل الموظفين معها، وتطمح للزواج مني، بل تطمع في ذلك).

ليست هذه مشكلة؛ هنا تذكّر الشيخ القضية الجوهرية؛ التي حضر من أجل مناقشتها، فهذه الفتاة -(فتنة)- تسخر من أمها، ولا تريد أن تمارس التسوُّل كما نفعل)؛ (يا شيخ؛ دعوها لي، وأنا أكرمها بالزواج، وأصونها عن التسوُّل) وهبّت عاصفة اعتراضات على هذا الذي يرى التسوّل عيبا، (ما العيب الذي في التسوُّل؟!)؛ (كل من لا يساوي فلسا؛ صار متسوِّلا، ومع أنه يعيش على التسوُّل، فهو يستنكره؛ يستنكف منه، أي كلام هذا؟!) واستمرت هذه الأسئلة

الاستنكارية، وطلب الشيخ رأي الأب الذي اقترح أن تتكلم البنت، فهي وكيحة، لا يرضيها رأيُ راءٍ، وهي تجيد التعبير عن نفسها، ورضي الشيخ هذا، فوجه الكلام إليها:- (لعلك لا تحبين التسوُل أيضا؟!)؛ (أأتنكر لعمل أبى وأمي الذي تربيت عليه؟!)؛ (بارك الله فيك يا بنيتي، فكيف تحبين أن تبدئي عملك في التسوُل؟!

- **أتحبين أن أفقأ لك عينا؟! أم أقطع لك رجلا؟! أم أكسر لك يدا؟!**

أنا مستعد، وعندي لك مكان مكين في قلبي، وفي جامع كثير المصلين، ليس على بابه متسوِّل، فماذا تقولين؟!)؛ (أنا -يا شيخ- لا أخرج على ما تقول أو على ما يقوله أبي وأمي العزيزان، لولا أنني أراكم تتسوَّلون بطريقة كلاسيكية)؛ (طريقة ماذا؟!)؛ (ألم أقُل لك -يا شيخ- إنها تقول كلاما غير مفهوم؟!.

إنها تعرف أشياء لا نعرفها، إنها تفكر بأشياء لا نفكر بها نحن المتسوِّلون الذين تشربنا المهنة، لذلك أقترح عليك؛ أن تسمع لما تقول)، ودون أن تنتظر إذن الشيخ بالكلام؛ انسحبت من قربه حتى لا يعود إلى لمس خدها أو أيِّ مكان آخر من جسدها، قائلة: (أما الكلاسيكية، فهي القديمة، ولن أستعمل بعد الآن؛ كلمات لا تحسنون التعامل معها)؛ هنا همس الشيخ في أذن مساعده، وأمره أن يخبر الجميع، بألا يقولوا كلاما لا تفهمه الجماعة؛ حين كانت الفتاة مستمرة في الحديث:- (وأما الجامع الذي يتحدث عنه الشيخ الكريم، فعما قريب تكبر (حسنة) بعض الشيء، فيكون لها مكانا مناسبا؛ أين ستجدون لها مكانا؟! أم ستجلسونها على يميني في باب الجامع الكثير المصلين من

الفقراء؟!)، وأعجب الشيخ والباقون، بجرأة هذه البنت، وفهمها لأصول الصنعة ومشاكلها وهي كثيرة؛ مع أن (جحا) اشتغل في كل كار يوما، واشتغل في كار التسوُّل؛ أربعين يوما: (ولو كان يفهم، لاشتغل به العمر كله، فتكفي في هذا العمل؛ كلمتان كاذبتان، والمغفلون كثير، هم الذين يكوّنون للمتسوِّل رأسماله، أليسوا يريدون تفعيل القطاع الخاص؟!)؛ على أهمية ما قاله الشيخ، ورضى الرعية عنه، فقد انزعجت (فتنة) من مقاطعتها، وقد أتت لتدافع عن وجهة نظرها في تطوير التسوُّل، وبدا هذا الانزعاج؛ على كلامها: (أنتم، لن تفقؤوا لي عينا، ولن تكسروا لي رجلا، كما أنكم لن تقطعوا لي يدا، سأخرج للتسوُّل في باب (الزاهرة)؛ (أين؟! أتتسولين على باب قصر الأمير؟!)، (وماذا يمنع؟!.

أنا لست أصغر من (ولادة بنت المستكفي)؛ سنا، ولا أقل من أعظم جواري (زرياب)؛ حسن صوت وجودة غناء، ولي صديقة من جواري الوزير ابن (حزم)، ستساعدني على الدخول إلى أبواب قصورهم، والتطلُّع إلى محاسن جنائنهم، فذلك خير من الجلوس على باب جامع (قرطبة) الذي يتمنى كل منكم الجلوس على بابه، لكن الحرس يحرسونه من أمثالكم، والعسس يعسونكم عنه، فدعوني وما أنا فيه، ودعكم في ما أنتم فيه، فلا أنا اقنع بما أنتم فيه، ولا أنتم تتصورون استراتيجيتي التي أريد اتباعها في إنقاذكم مما أنتم فيه)، وهنا تدخل مساعد الشيخ، ليمنعها من أن تستعمل كلمات غريبة على مهنة التسوُّل، فرأت أن التسوُّل –مع أمثال هؤلاء– محنة، وتركتهم وانصرفت تخطر

كما تخطر الحمامة البيضاء؛ المتشحة بالسواد؛ تتفكر في ما كان بينها وبين جارية الوزير (حدثيني عن أحوال القصر؛ ما شأنه)؟!.

ماذا يحدث فيه؟!

كيف يمكن التعامل مع الناس فيه؟!؛ (عن ماذا أحدثك في القصر؟!

في هذا القصر بذخ هائل؛ أموال تصرف بلا حساب على الطعام والشراب وتزويق الجواري وملابسهن وزينتهن وما يبذل للشعراء والمتزلفين والكذابين، مع تزيين البهائم ورعايتها إطعاماً وسقياً وتدريباً ومعالجة؛ أموال تبذل بلا حصر ولا حساب؛ في قصر يعد مبغى خاصاً ومقصفاً مفتوحاً على الدوام؛ (كيف هذا؟! أليس الجامع الكبير؛ أول منشآت القصر؟! وكيف يكون قصر الأمير مبغى خاصا ومقصفا مفتوحا على طول الوقت؟!)؛ (أما الجامع الكبير، فهو موجود للعبادة المظهرية، وأما كون القصر مبغى خاصا، فلأن للأمير أربعة آلاف جارية، فكيف يصلهن؟!.

ألسن من النساء المحتاجات إلى رجال؟!.

أليس في القصر شعراء تعرض الجواري أنفسهن عليهم، حتى إذا شبب بإحداهن شاعر؛ شاع اسمها، وعُرِف جمالها، فلعل الأمير ينظر إليها بعطف؟!.

أليس في القصر جنود وفرسان وموظفون؛ يمكن للجواري إغراؤهم كما يمكنهم إغراؤهن، وهم جميعا في غير حاجة إلى إغراء؟!؛ أرادت الجارية أن تستمر بوصف القصر وأهله، فقاطعتها متسائلة: (أهذا حال جواري الأمير وأعوانه؟!.

كيف يشترون له مثل هذه الجواري؟!.

وكيف يقبل معونة مثل هؤلاء الأعوان؟!؛ (أما أعوان السلطان، فقلما يكون حالهم خيرا من حال هؤلاء الأعوان، وأما الجواري، فمن أين يأتون بمن هن خير من هاتيك؟!.

الجواري، أما مشتراة من أمها، وأما مختطفة، وأما مسبية، وفي كل الأحوال، هي طوع أمر سيدها؛ تفعل ما تؤمر، فلعل مشتريها يفعل معها ما يشاء، ولعل مختطفها يفعل معها ما يشاء، ولعل سابيها يفعل بها ما يشاء، وهي –في كل الأحوال– مضطرة للاستسلام؛ قابلة بما يحصل لها، فإذا ما دخلت الخانات وأسواق النخاسين –وغالبا ما تدخل أكثر من سوق للنخاسين؛ يسمى سوقا، وهو في حقيقته؛ مبغى عام– رأت ما لا تراه امرأة حرة؛ تعيش بين جوارٍ لهن من التجارب والخبرات؛ ما تشيب له رؤوس الولدان، وتتعرف على معلمين؛ هم أقرب من الشياطين، وتعرض على رجال يقبل منهم أن ينظروا إلى ما لا تكشفه المرأة لأخيها أو لأبيها، وهم يشترطون أن يكون ذلك بدون لذة فكيف يُضمَن ذلك؟!.

ومن يهتم بذلك؟!.

وهل تعرض الجارية ما تعرضه على من يختبرها علنا وأمام الناس؟!.

ماذا يفعل الشعراء والفساق وأمثالهم في الخانات وفي أسواق النخاسين؟!.

سلي من كان بهذا خبيرا، إن الجارية لا تصل قصر الأمير إلا إذا كانت خبيرة مدربة حافظة للكثير من أشعار الغزل والخمر قادرة على الغناء والإغراء والإلهاء وما إلى ذلك مما لا يسهل ذكره، (والأمير؛ هل يعرف هذا كله؟!)، وهل يوجد من لا يعرف هذا كله وأكثر منه؟!.

من أين تتخرج الجواري وأين يتدربْنَ؟!.

أليس تعليمهن وتدريبهن يقع في بيوت النخاسين وأسواقهم وبينها، وهن يتنقلن من مشرق الأرض إلى مغربها أو بالعكس؟!.

وماذا يتوقع رجل عاقل يملك ألف جارية؛ يزعم أنهن له جميعا لا لسواه؟! هل يعقل عفاف أغلبهن؟!.

وكيف الحال إذا كن أربعة آلاف كما هو الحال في قصر الأمير؟!.

إذن فهو أحمق، ولكي تعرفي أنهم يعرفون ويغضون النظر؛ يكفيك أن تتذكري كم مرة جرى استعراض للفرسان في القصر؟!.

هل تضنين أن هذا الاستعراض يكون لأمير أو لملك؟!.

إنه يكون لبنات الأمراء وأخواتهم من العوانس اللاتي يخشى أن يخطبهن أحد، كما لا يخطبهن أبناء الملوك والأمراء؛ فتكون في يد إحداهن تفاحة، أو وردة، فإذا ما أعجبت بفارس ما، ألقت إليه ما في يدها، فيكون معنى ذلك أنها قبلته، وتجري مراسيم الخطوبة والزفاف بعد ذلك، ومن يدري ما الذي حدث منها قبل ذلك أو يحدث منها أثناء ذلك وبعده؟!.

أنت تعرفين التأريخ الصغير، وتعرفين الكثير من مجريات حياة الملوك وعوائلهم والعوائل المحيطة بهم، ألم تعلمي أن أحد أسباب فتح الأندلس، إنما كان بسبب بنت لأحد ولاة (ردريك) على سبتة؛ اغتصبها الملك؟!.

هذه حالة اشتهرت في التأريخ الكبير، فكم اشتهر من أمثالها في التواريخ الصغيرة؟! وكم الذي لم ينكشف؟!.

فإذا كان هذا هو حال الأميرات بنات الأمراء، فما هو حال الجواري؟!.

ها قد أصبحت على علم بما يجري في هذا القصر، فهل ستواصلين مغامرتك؟!؛ لقد علمني التسول؛ القبول بكل شيء؛ ترى كم يحصل للمتسولين والمتسولات مما يحصل في هذا القصر، بلا ثمن بل بلا أجر؟!

لكنني أتساءل:- أين حدود الله؟!.

أين حد رجم المحصنة وحد جلد البكر؟!؛ (الجواري –يا بنت الحلال- أموال، وهم لا يضحون بأموالهم، لذلك يُنصِّفون حد الجارية فيجلدونها خمسين جلدة هينة، بدل المائة الشديدة التي تصيب الحرة –هذا إذا قرَّروا أن يكتشفوا زنا الجارية البكر، وكم هناك وسائل لستر هذا الأمر، حتى أنهم يزعمون أن هناك بكارات اصطناعية كما يوجد أطباء متخصصون برتق البكارات- وأما الرجم الذي يصيب الحرائر المحصنات، فلا يصيبهن، لأن الرجم لا ينُصَّف، ومن ذا الذي يهتم بهذه الأمور غير حاسدة حاقدة أو طالب حاجة مبعد؟!.

وكثيرا ما يُنسى هذا كله، وبينما سرحت تتفكر فيما تتفكر فيه؛ أبدى شيخ المتسوِّلين إعجابه بها على الرغم من بعض سوء أدبها الذي لا ينفع في مهنة التسوُّل، واستعمالها الكلمات الغريبة في ألفاظها؛ إلى جانب عدم خبرتها في شؤون التسوُّل، فكيف ستقنع (ابن حزم) -الوزير- بمساعدتها على الوصول إلى الأمير؛ على الرغم من حسنها وجمالها وعلى الرغم من أنه شاعر مُجيد؟!.

هنا رد الأب المنكوب بابنته الغريبة: (دعها على الله؛ أنا أثق بالله وبشطارتها، فمن يدري؟!.

يقال أن الأيام حبالى، ولو لم تفعل غير أن تجمع ما في قصر (ابن حزم) من فاضل الطعام، لكفاها فخرا؛ من منا أكل طعام الوزير؟!.

وإذا فاض شيء منه؛ عرضناه على مطاعم (العطارين) فهم أعرف بطيب الطعام)؛ هنا كان للشيخ أن يتذمر من فوات هذه الفتاة من بين يديه، وكذلك الذي أراد صيانتها من التسوُّل: (أيوجد من يخرج بكل جماله وكماله وقدرته على الغناء للتسوُّل)؟!.

المتسوِّلة والأمير

(أحسنتِ المجيء اليوم، إنه قدم السعد، ففي بيت الوزير (ابن حزم) اليوم؛ مصطنع -احتفال- تلتقي فيه كل نساء الطبقة الحاكمة والثرية وبناتها؛ الحجة؛ أنهنَّ يردنَ التفرج على (قرطبة) من شراجيب قصر (ابن حزم) ونوافذه)، (ما حقيقة الأمر؟!)؛ (هُنَّ يعرضْن بناتهن على الأمير، إنه يريد اختيار إحداهن لتشاركه أعباء الحكم، أما أنت، فتستطيعين اليوم أن تحملي (لوري) من الطعام الذي سيتبقّى، سنلقيه في الزبل؛ تأكلون منه شهرا، لو كان عندكم كهرباء، أما وليست عندكم كهرباء، فتستطيعون أن تبيعوه للعطارين الذين أنتم بطرفهم)؛ هكذا تحدثت جارية (ابن حزم)، أما فتنة، فقد بدت متفكرة (فيمَ تفكرين يا بنت الأيه؟!)؛ (أنا أتفكر في هذا الغم الذي يلازمنا، لماذا كنا فقراء، وكانوا أمراء؟!.

لماذا ينبغي أن نبقى فقراء، وأن يستمروا أمراء؟!

انظري إلى هاتيك الفتيات اللاتي لا أشك في أنهن من المحجبات -بل المنقبات- اللواتي سينكشفْنَ أمام الأمير، بزعم أنهن لا يدرين، ألستُ أو ألستِ أجمل من أكثرهن؟!)، (والله لو جئت إلى الحقيقة، فأنتِ أجملهن، وأذكاهن، وربما أعلمهن، ولكن الله قسّم الأرزاق، فلا تطلبي ما ليس لكِ، ولكن، مَن قال أنه ليس لك؟!.

الأمير يعرف هاتيك الفتيات عن قرب؛ آباؤهن، بين وزير وكاتب وشاعر ووالٍ وقاضٍ، فأين هو منهن؟!.

لو أراد واحدة منهن، لقدموها له على طبق من ذهب، فما لك لا تتعرّضينَ للأمير، بجمالك وغنجك، ثم إذا بدا منه أمر، فبدلالك وعلمك؟!)؛ (كيف

يكون هذا؟!)؛ (هذا ليس من شأنك، دعيها لي)، (والله لو حصل المراد، لكان لك عندي ما لا يكون لغيرك)، (نعم قد تقتلينني لتتخلصي ممن يعرف سرك؛ أنا لا أفعلها لمطمع؛ أنا أفعلها لله وحده، فلا تطمعي في ما لا يكون؛ أنا أعرف منك بالحكام، فلا تمنيَني)، (لكنك فاتنة، وذكية، فما لكِ لا تتصديْنَ له؟!)، (لو كنتُ أعلم أن هذا ممكن، ما تركته لكِ، ودعيني أؤدي عملي، لا تفسدي عليَّ هذا اليوم، فإذا فسد عليَّ، فسد عليك)، وانصرفتْ كل منهما لشأنها، (فتنة)؛ تفكّر في إغراء الأمير، وصديقتها؛ تفكّر في عرضها على الأمير.

في عصر ذلك اليوم المشهود، وقد ملَّ الأمير مشاهدة الفتيات المتصنعات المعروضات عليه أو عارضات أنفسهن بين يديه، اللاتي عرفهن، فلم يكن له فيهن مأرب، ولو أرادهن جواري، لما اعترض على إرادته أحد؛ كان يدور مع الوزير في الحديقة، حين عرضت الفتاة المحجبة نفسها عليه؛ كان غنجها ظاهرا، أما جمالها، فكان ما يزال محجوبا عن عين الأمير ووزيره؛ قال الأمير للوزير:- (أجِز:-أقبل الورد خجولا غردا).

حاول الوزير أن يجيز قول الأمير أو تظاهر بالمحاولة، فلم يُجِزْ، فأجابت (فتنة) من فورها:-

(يطلب السعد من الغيث الأمير

فيصير القلب من إسعاده روضة عزَّ لها أيُّ نظير

يا مراد القلب والقلب صفا لك هل ترنو إلى هذا المثير؟!)

قد رنونا فتقدمي)، وتتقدم بخفر الأميرات، فتأخذ يده لتقبلها كالمتسولات، لكنها لا تفتح من وجهها إلا قليلا يعبِّر عما يحمله من جمال،

ويطلب إليها الأمير أن تكشف عن وجهها، فتفهم أنها لو فعلت، ما وجد فيها أكثر مما وجد في هاتيك المتكشفات، فبدا خفرها، وظهر خجلها على لسانها العذب وهي تقول بتكسر السنة الروميات، وفصاحة العربيات وعنف البربريات: (يا مولاي، لا يحل لي ذلك، فأنا وإن كنتُ جارية من جواريك؛ تملك أمرها، لكنك لا تملك أن ترى وجهها بملك ولا بزواج، فكيف أكشف لك عن وجهي؟!.

لأكنْ لك بشكل ما، فإن وجدْتَ فيَّ ما يمتع العين، ويبهج القلب، وإلا لم يصعب عليك شيء، والطلاق شيء مكّنك الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىَ- منه، ففيمَ الاستعجال؟!)، بهذا أثارت الأمير أيما إثارة، ودخلت قلبه دخول الفاتحين الذين يستقبلهم الناس بالورود المعطّرة، لحبهم إياهم، لكن مَن هذه الفتاة؟!.

ممّن يمكن أن تشترى أو تخطب؟!.

وكانت تعرف أن هذه الأسئلة سيتم طرحها، لذلك لم تبتعد، وانصرفت إلى جمع الأزهار وتنسيقها بلا استعجال، فحين لحق بها الوزير ليسألها عن أمرها؛ وضعت بين يديه هدية له؛ باقة أزهار لا أحلى منها إلا الباقة المعدة للأمير، وعرف الوزير أصلها، وأهلها، وعملها، فعاد إلى الأمير، بغير الوجه الذي تركه به، لولا باقتا الزهر اللتان ملأتا يديه بالجمال، وملأتا الجو بالعطر.

مجلس الشعب

على عادة الأمير في الظروف الصعبة؛ عقد مجلس الشعب، وعلى عادة الإعلاميين الكذابين؛ قالوا في الأمير، ما لم يقله الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- في الرسول (ص)؛ أنشد الشعراء ما أنشدوا، وقال الخطباء ما قالوا، فلما ظن الأمير ورهطه؛ أن الناس قد قبلوا رأيه؛ عرض عليهم ما يريد: (لقد كان في المسلمين خير كثير، وأنا رجل مسلم، لا أفرّق بين غني وفقير، وقد أمرنا الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- بالزواج، وعده نصف دين الشخص، إذا بلغ مبلغ الرجال، وكان له ما يعيل به أهله، وقد بلغْتُ مبلغ الرجال، وأنا بصدد إتمام نصف ديني إذ أنني أملك ما أعيل به أهلي، وستكون (فتنة) بنت (فتّان)؛ أول نصيبي من الزواج، وأنا مقيم عند زفافي أربعين يوما من الاحتفالات؛ يأكل الناس فيها ويشربون، ويمرحون ويرقصون، ويسمعون (زرياب) وجواريه –ممن تركوا بغداد العظيمة؛ راغباً في الأندلس الجميلة- على حساب الأمير، وأرى أنكم جميعا موافقون، وانطلق التصفيق المعد من أمام الأمير، بعضهم تبسم، وبعضهم ضحك، وبعضهم تساءل بصوت منخفض: (أترك بغداد العظيمة أم طردوه منها؟!)؛ بعضهم تألم لأن بغداد تتقيأ أبناءها العظماء الذين يضيئون العالم، لكن صوتاً ارتفع من آخر الصفوف: (يا سموَّ الأمير؛ نحن لا نعترض على أن يتم أميرنا الكريم؛ نصف دينه، فهذا أحرى به وأسلم لنا وله، لكننا سمعنا أن المقترح الزواج منها؛ قد اشترطت على سمو الأمير شرطاً وأن سموه قد وافق عليه ولما كان سمو الأمير ملكا لشعبه؛ قبل أن يكون ملكا لنفسه، فقد رأينا -وبلا اعتراض- أن نعرف هذا الشرط، وأن نعرف من التي ستصبح سموَّ الأميرة؛ ما أصلها؛ ما فصلها؛ من أهلها؟! ما عملها ؟!)، (أما الشرط،

فهو خاص بي وبها، ولا أرى أن فيه ما يضير أحدا من الناس، ولا مانع من أن أذكره، إنها تريد –إذا أكلت– أن تأكل وحدها؛ منعزلة في غرفة مغلقة، ولا أرى أن أحدا من الناس؛ يهتم بهذا الأمر)؛ (كيف يا سموَّ الأمير، والرجال يأكلون مع سمو الأمير، والنساء يأكلن مع سمو الأميرة، والجلوس للأكل بانفراد؛ يدل على شيء، ألا ترى أن حاتما لم يكن يأكل، حتى يكون معه من يؤاكله؟!

ألم يسمعه سموكم وهو يقول:–

أَيا اِبنَةَ عَبدِ اللهِ وَابنَةَ مالِكٍ وَيا اِبنَةَ ذي البُردَينِ وَالفَرَسِ الوَرِدِ
إِذا ما صَنَعتِ الزادِ فَالتَمِسي لَهُ أَكيلاً فَإِنّي لَستُ آكِلَهُ وَحدي
أَخاً طارِقاً أَو جارَ بَيتٍ فَإِنَّني أَخافُ مَذَمّاتِ الأَحاديثِ مِن بَعدي
وَإِنّي لَعَبدُ الضَيفِ ما دامَ ثاوِياً وَما فِيَّ إِلّا تِلكَ مِن شيمَةِ العَبدِ؟!.

(هذا شيء خاص يا شيخ البيازين –مبيضي النحاس– ليس لك أن تناقشه، وأنا الأمير، وسآكل مع الرجال، وأمي أميرة، ستأكل مع النساء، فماذا بقي؟!)، (لقد بقي يا سمو الأمير بنوك وبناتك المقبلون؛ أيأكلون مع الناس؟! أم يستقلّون بالأكل وحدهم؟!.

إنها تربية، و(الأم مدرسة))؛ (أعدك أن أمي ستربيهم وتربيهن)، (ولكن العرق دساس)؛ (أنت –يا شيخ البيازين– تنكر عليَّ أن أتزوج امرأة فقيرة، ولو كانت من بناتكم؛ ما اعترضت)؛ (يا سموَّ الأمير، لو كان الأمر أمر فقرٍ وثراء، لما اختلفنا، فقد أمر الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– بأخذ الفقراء حين قال: ﴿ **وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ**

﴿ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ النور: ٣٢ ، لكنه لم يقلْ خذوهم متسوّلين، لقد عرّف الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- الفقر حين قال: ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ ﴾ البقرة: ٢٧٣ ، فهل هذا من شأن هؤلاء الناس؟!)؛ هذا السؤال؛ أحرج الأمير، وجعل العطارين يوافقون (البيازين) لأول مرة وأفرحهم السؤال، حيث قال أحدهم بصوت خفيض:- (والله كلفني عطرها وملابسها مائة دينار ذهباً) فأجابه صاحبه بالصوت الخفيض نفسه: (لك واحدة فماذا أقول ولي سبعة قد عطرتهن وألبستهن وجهزتهن وقدمتهن؟!)، أما الوزير، فقد قرّر ما قرّره الأمير حين نبّه إلى أن هذا تحّذلق، وأن الأمير الخطير؛ قرّر النزول إلى الشعب، وليس لأحد أن يكون له رأي بعد رأي ولي الأمر، ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ النساء: ٥٩، أما ولاية الأمر، فقد دار حولها ما دار، (لماذا لا تكملون قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- حين تقرؤون هذا الآية الكريمة: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩، وأما أنه لو أراد التزوّج ببنت واحد من (البيازين)، لخضع وخنع، وتمنى، فهذا مما لم يثبت، نحن لا نعطي بناتنا لأصحاب القلعة، فالقلاع طالما تخربّت، وفرَّ عنها من كان فيها أو تم طرده، أما صاحب الصنعة، فإنه يعيش بها حيث كان، ولو كان هذا العيش عيش الكفاف). وانفض بعض الناس (والله إنه لا ينفع معكم إلا أمثال (الحجاج) و(الحكم) الربضي، ولو شئتم، لكنتُ منهم)، (أما

أن تكون منهم، فهذا شأنك، لكن للمسلم على المسلم حق التنبيه، فماذا حدث للحجاج؟! وأين الحكم الربضي؟!.

لقد ذهب الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىَ- بهما، وها هم أهل العراق يزينون العالم بأنوارهم التي سيضيء أحدها حفل زفاف الأمير، وها هم أهل الربض؛ قد عاد منهم مَن عاد، وبقي منهم مَن بقي)؛ (هل تستمر دكتاتورية الأغلبية؟!)، (وهل ينبغي أن تدوم دكتاتورية الأقلية؟!.

لماذا تعرضون (عمر بن عبد العزيز)، وتبيعون (السفاح؟!))، هنا سحبه من ثوبه من كان يجلس بجانبه (اجلس -يا حمار- سيقتلونك)، (إن الحجاج والحكم الربضي؛ يتمثلان فيه)، (ولِمَ لا يقتلونه؟!)؛ (أمير أحبَّ متسولة، ما العيب في هذا؟!)؛ (أليست من رعاياه؟!)؛ (ألا يستطيع أن يتخذ منها جارية؟!)؛ (مَن الذي يناقشه؟! من يعترض عليه؟!)؛ (البيازون؟! وماذا فعلوا لأنفسهم؟!)؛ (إنه أمير؛ يفعل ما يريد، فمَن رضيَ، رضي، ومَن سخط، سَخط، ولا رادَّ لأمر الأمير الذي قد لا يأمر بالقتل، لكن ما الذي يحدث لو تمَّ القتل)؟!.

(حتى لو حاكم الأمير القاتل، حتى لو تم الحكم عليه بالقتل، هل سيعود القتيل إلى الحياة؟!)؛ هكذا كان البعض يفكِّرون؛ من هنا ينبغي تمشية الأمور (ماشي الحال)؛ كلمة تدور على ألسنتهم، وتسمعها منهم، وكأنها قدر مقدور؛ (لا تفكر، لها مدبر) أو (دعِ المقادير تجري في أعنتها)...الخ؛ (اربط الحمار مطرح ما صاحبه عاوز) فـ(نحن مسيرون لا مخيرون).

وانفض المجلس، وفي قلب كلٍّ منهم ما فيه؛ حَقد الأمير على شيخ البيازين، وحَقدت الأميرة المتسولة عليه، وخاف الناس كلهم عليه، فقد صار غرضا لسهام الظالمين.

تطلـــعات المتـــسوّلـــين

حين انفكَّ عقد مجلس الشعب؛ لم يكن هناك توترٌ ظاهر، لكن التوتّر في النفوس واضح، فالناس، لا تعترض على أن يختار الأمير مَن يشاء من النساء؛ يتزوُّجها، بالعكس؛ فهم قد يحبونه، ويتمنون، أن يأتيه ولد صالح؛ يكون لطيفا؛ من أمٍّ تعرف مشاكل الفقراء، فلعلها تساعد على حلها، فالفقراء ليسوا أعداءً لأحد، إنهم -فقط- ينوءون تحت أعباء الظلم القاسي، فلو أن أحدا نظر إليهم بعين الإنصاف، فلربما تقلّ مشكلاتهم؛ هكذا كان شيخ (البيازين)؛ ينظر إلى الأمر، وهو ما قاله لَمن معه من أبناء صنفه والأصناف الأخرى من الفقراء والعمال الذين كانوا معه في مجلس الشعب، وهو ما كان يدور في قلوب الكثير من الناس؛ (أن تكون زوج الأمير من عائلة فقيرة؛ هذا ما لا يمانع به أحد، وأما أن تكون متسوّلة، فهذا هو الإشكال؛ كيف ستربّي ولدها؟!.

أتربيه على معرفة أصول الحكم الصالح؟! أم تربيه على معرفة أصول التسوُّل؟!.

هذه المسالة؛ تداولها الناس بسخرية أحياناً؛ كان هذا السؤال يدور على ألسنة الناس وأسماعهم؛ صحيح أن الأساليب مختلفة؛ بعضها جاد والبعض الآخر ساخر على رأي (جحا):- (ستجلب له أفضل أساتذة التسوُّل من دول العالم ليعلموه أجدى أساليبه)؛ (سيقف على باب قصر الملك الذي يدعوه لزيارة بلده، وقبل أن يدخل يقول:- (المال مال الله والسخي حبيب الله أعطونا مما أعطاكم الله) أو يقول:- (الله كريم؛ خبزه ولحمة)؛ سيقولها ملحنة مع الإيقاع وربما مع الرقص أيضاً، (حتى (جحا) الذي اشتغل في كل كار

يوما، واشتغل بكار التسوُّل أربعين يوما؛ لم يرضه هذا الزواج)، وبالعكس من هذا الرأي؛ كان يدور في الشارع القريب –عند قصر الزاهرة– رأي آخر هو أن جدته هي التي ستربيه أو أن الأمير سيجد له أفضل المربيات والمربين ليربينه ويربونه على أحسن أساليب العلم، ألا ترون (صاعدا البغدادي) موجوداً في قصر الأمارة؟!.

إذا ما مات (صاعد) أو شاخ، فلن يُعجز الأمير؛ أن يدعوَ أحداً من علماء العراق العظماء، ليربيه، وأن يطلب له كتب المشرق، لتأديبه؛ ألم يصل كتاب (الأغاني) لـ(أبى الفرج الأصفهاني) إلى مكتبة (الحَكَم) قبل أن يصل إلى مكتبات ملوك الشرق؟.

- المال يفعل المستحيل.
- ورأي آخر يتساءل أين الأمير الصغير؟!.
- ألا يحتمل أن تكون عاقرا مما يضطر الأمير للتزوج من غيرها؟!.
- أليس من حق الأمير؛ أن يتزوج غيرها أو أن يتسرى بغيرها؟!.
- كم هم خلفاء (بغداد) وأمراء (الأندلس)؛ الذين هم من أبناء السراري؟!.
- أنتم تناقشون أمرا لم يحصل، وقد لا يحصل البتة.
- ويجيبهم فلاسفة الشعب أنكم تتحدَّثون عن احتمالات؛ ماذا لو حدث عكسها؟!.
- ماذا لو أنها حملت من أول ليلة؟!.

- ماذا لو أصاب جدته ما يصيب الناس من المرض أو ما بعد المرض؟!.
- ماذا لو أنها تمكنت من السيطرة على عقل الأمير، وربته على رغبتها بين أيدي بعض المتسولين؟! .
- إن مشكلة الأمير المتسوِّل؛ مشكلة حقيقية؛ كيف يمكنه أن يعطي أصحاب الحقوق حقوقهم، وهو يتسوَّل من أكف الناس؟!.
- ولماذا يزعجكم تسول المتسولين، وتخافون أن يصبح الأمير متسولا؟!.
- ألا ترون أن للفقهاء رزقا يأخذونه من عمل الفقراء؟!
- لعل الأمير يكون من الفقهاء المترزقين لا من المتسولين، (وماذا نفعل لو حدث العكس، فكان من المتسولين أعداء الفقهاء المترزقين)؟!.
- أكثر من هذا، لماذا يكون من المتسولين أو من الفقهاء المترزقين من الفقراء؟!.
- ألم يكن خيار أصحاب رسول الله (ﷺ) وكبار الفقهاء ما بين تمار مثل: (ميثم) وبزاز مثل (أبي حنيفة) وبائع خل مثل الشيخ (الخلاني)؟!.

وهكذا نشأت أربع جماعات؛ متناقشة أولا ثم متناقضة؛ متصارعة ثلاث منها ساندت الأمير في زواجه من متسولة، والرابعة كانت متخوفة من هذا الزواج.

وبينما كان أنصار الأمير والمتسوِّلين؛ يردّون على آراء أبناء الشعب، وأبناء الشعب من الفقراء؛ يتصدَّون لأفكارهم؛ بدت مشكلة أخطر أمام الأمير من جهة، وأمام (فتنة) وأبيها؛ من جهة أخرى، فلم تتم خطبة الفتاة رسميا بعد،

لكن المتسوِّلين؛ بدؤوا بعرض أجنداتهم، وتشكيل تشكيلاتهم؛ داخل جماعة المتسولين؛ كل بحسب ما يريد؛ أول تشكيلة من المتسولين؛ عرضت مطالبها على (الفتان) -أبي (فتنة)- فـ(فتنة)؛ لم تعد تعرض نفسها على أحد، لا على شيخ المتسولين، ولا على صديقها الذي كان يحلم بالزواج منها، بل لم تعد صديقاتها؛ يحظين منها بلقاء، لقد صارت أميرة، ومن ذا الذي يلقى الأميرة أو يخاطبها؟!.

المهم أن **أول مقترح تمَّ اقتراحه** هو أن تطلق أيدي المتسولين، بالانفتاح؛ في أبواب جامع (قرطبة) الكبير، وأن تعلو أصواتهم أمام أبوابه بالسؤال، أما **القضية الثانية** التي تم عرضها على (الفتان)، فهي قضية المتسولين الذين حاولوا تفجير جامع (قرطبة) لأنهم ممنوعون من الوقوف على بابه، أو لأنهم محرومون من الحصول على خيراته وبركاته التي يتمتع بها القيمون عليه، وبالطبع، فهؤلاء الذين تحدوا أوامر الدولة، فوقفوا على باب المسجد للتسول؛ أحرى بإطلاق سراحهم، فمَن الذي حرَّم وقوف المتسولين على أبواب مسجد ما أو في داخله؟!.

- **ألم يكن المتسولون؛ يدخلون مسجد الرسول** (☺) **في المدينة المنوّرة؟!**.

إذاً كيف أعطى (عليٌّ) (ع) خاتمه للمتسوّل حتى قال الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فيه: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ** ﴾ المائدة: ٥٥، أيكون مسجد (قرطبة)؛ أهم من مسجد الرسول الأعظم (ﷺ)؟!.

كلا وألف كلا.

إذن فلا بد من السماح للمتسولين، بالوقوف على أبواب جامع (قرطبة) وفي داخله للتسول، ولا بد من إطلاق سراح الموقوفين بهذه الحجة، ولا بد من إطلاق سراح مَن تألموا لمنعهم من الوقوف على باب الجامع، ففكروا بتفجيره، وبالطبع، لا بد من إطلاق سراح مَن لم يثبت عليهم شيء من ذلك كله، ولم يتم عرض قضيتهم على القضاء العادل، بل ينبغي أن يتم تعويضهم عما قضوه في المواقف والسجون من أيام ولياليٍ، فقدوا فيها ما كانوا يتكففونه من الناس، وأيُّ قضاء عادل تحت ظل قوانين أعداء المتسولين؟!.

- **هذه مشكلة سمعها (الفتان)، لكن ماذا يستطيع أن يفعل؟!.**

إنه موافق لهم على كل شيء، وهو موافق لهم على تجريد جامع (قرطبة) لا من خيراته وبركاته فحسب، لكن تجريده من كل شيء؛ من ذهب المنائر والمنابر المذهبة، وأجياد بناتهم عاطلة، من هذه القناديل المتلألئة في الليل، وبيوتهم ظلماء، من هذه السجاجيد الحريرية التي لا يحلمون بلمسها؛ من هذه المياه العذبة الباردة؛ التي تخلو أحياؤهم منها؛ كل شيء في هذا الجامع؛ ينبغي تجريده منه، والحصول عليه بشكل شخصي؛ الحكومة؛ تستطيع تعويضه، أما هم، فما لهم وله؟!.

إنه يتذكّر أيام سخروا ممن في الجامع أكثر من مرة، فكم احضروا ورقة من ديوان الأوقاف؛ تمنحهم حق أخذ أشياء معينة، وشكَّ الخدم بهم، لكنهم دلوهم على أماكن تلك الكنوز الأثرية أو كنوز المخطوطات؛ عدا عن كنوز الذهب والمجوهرات، التي استخلصوها من بين أيديهم، ثم حملوها في لوريات، وانصرفوا سالمين غانمين؛ لم يمسسهم سوء؟!.

وكم جرى تحقيق شكلي انتهى إلى أن اللصوص مجهولون، وأن الذين زوَّدوهم بتلك الأوراق؛ مجهولون هم أيضا، وتم تسجيل كل قضية من تلك القضايا ضد مجهول؟!.

بل كم تمت المتاجرة بأوقاف الجامع، فتمت سرقة المشترين ولم يحصلوا على شيء؟!

وليس مهما أن يكون المحدث مجهولا أو معلوما؛ المهم أن الأحداث حدثت، ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ الأحزاب: ٢٥؛ هذا المشكلة –على أهميتها– لم تكن مشكلة المتسولين الوحيدة، لقد كانت مشكلة المتسولين المتخلفين، أما جيل المتسولين الشباب، فقد طفا على السطح، وشكل تشكيلا آخر، فكانت له أحلامه العِذاب؛ لم يكن المتسولون الشباب؛ يحلمون أحلام آبائهم وأجدادهم الصغيرة في الجامع الكبير، فكل منهم يحلم بجامع صغير لنفسه؛ يكبر على يديه، فقبل أيام؛ حلم زيد بأن طارق ابن زياد –قائد الفتح الأندلسي– طرقه وطاف عليه في المنام، وأخبره أن قبره موجود في سوق العطارين، وطارق ابن زياد شيخ من شيوخ الله؛ ينبغي أن يبنى حول قبره جامع، وأن تشاد له منارة بل منائر مذهبة، وأن يكون زيد هو القيم على الجامع والضريح، وهو أمر على (الفتان) أن يحققه، وبعد هذا الحلم؛ صار قادة الفتح وولاة الأندلس وشيوخها وأمراؤها –الذين لا تعرف قبورهم– يظهرون لشباب المتسولين، كل في ليلة، وربما ظهر اثنان أو ثلاثة منهم لاثنين أو ثلاثة من شباب المتسولين في ليلة واحدة، وكثيرا ما كان يظهر الواحد منهم، لأكثر من واحد من شباب المتسولين، ثم يدله على قبره في مكان غير المكان الذي يدل عليه سواه، إذا ظهر لسواه، فكان للشخص الواحد قبران أو أكثر؛ في

مكانين أو أكثر؛ يحتاجان إلى جامعين أو أكثر؛ يقوم عليها قيمان أو أكثر من الشباب حصرا في المرحلة الأولى، وكم أدى اختلافهم حول مكان قبر أحدهم؛ إلى قتال يحتاج تدخل شيخ المتسولين أو قاضي القضاة، لفك الاشتباك.

أما في المرحلة الثانية، فقد أصابت بعضَ المتسولين الشيوخ؛ عدوى أحلام الشباب المتسولين، فكانوا يحلمون هم كذلك بأصحاب القبور الذين يطلبون المساجد لأنفسهم، ولم لا يفعلون؟!

- **أليس لديهم أبناء وبنات سيكبرون، ثم لا يجدون من يحلمون به؟!.**

هم يوفرون لهم منذ الآن ما سيحتاجون إليه في قادم الزمان.

ومع أن المعارك العظمى وقعت –أو تقع– في الصحارى والسهول؛ خارج المدن، فاللطيف أن كل القبور –المحتاجة إلى مساجد– موجودة في أرقى مناطق (قرطبة) وأحلى محلاتها وأعظم أسواقها، وهم يطالبون (الفتان) بحق هؤلاء العظماء في المساجد، (ألا ينبغي إحياء تأريخ الأندلس والتعريف بعظماء (قرطبة)؟!)؛ (هذا ضروري طبعاً)؛ (لابد من المحافظة على هويتنا)؛ (لابد من إبراز تقاليدنا وتأكيدها)؛ بعض القبور كانت معروفة؛ عليها مساجد أو لا مساجد حولها؛ قد تكون في الصحارى أو الجبال أو في مناطق خالية من السكان، لكن المتسولين الشباب الباحثين عن المجد؛ أنكروا تلك القبور وأصروا على أن القبور الحقيقية لهؤلاء الأماجد؛ هي القبور التي حلموا بأماكنها.

قال (الفتان) لأبنه المفتون بموسى ابن نصير الذي طاف عليه وأخبره أن قبره متروك في سوق البزازين:- (تفكّر في جامع، ولا تطلب وظيفة؟!، ما أحمقك!)، (بل ما أحمقك أنت، أسمعت بقيّم أخرجوه من جامع؟!.

أما الموظفون، وكلما كبرت مكانتهم -كانوا أقرب إلى ترك العمل أو إلى الطرد منه- فمع أنني لم أسمع أن وزيرا تمت إحالته على التقاعد، لأنه يموت أو يقتل أو يسجن أو تصيبه أية مصيبة؛ قبل بلوغ السن القانونية للتقاعد، فإن الجامع مكان مناسب يبدأ الطفل عمله فيه في أول يوم يولد فيه، حيث يدخل العمل الحر، ولعله ينال فيه أكبر أجر يناله في حياته، ويستمر قادرا على العمل، حتى لحظة وفاته، لا إجازات اعتيادية، ولا إجازات مرضية، ولا أي شكل من أشكال الإجازات، إنهم يعجّزون المتسولين، فيضعونهم في دور العجزة أو دور الإيواء سمِّها ما شئت؛ ما أحمقهم!.

- **أنت لم تنل إجازة من العمل، حتى في نهار زفافك، وأمي هل تذكر؟!.**

إنها لم تحصل على إجازة حتى يوم ولادتي؛ تقول أنها خرجت بي لأداء عملها؛ يوم وُلِدْتُ، وكان ذلك يوم سعد، فقد نالت في ذلك اليوم؛ أقصى ما نالته في حياتها من الصدقات؛ كان دم النفاس؛ ينزل عليها، والناس تتصوّر أنها تتضوّر من الجوع، وإلا ما خرجت وهي في هذه الحال، فتنهال عليها الصدقات الكبيرة، أنها دروس في التسوّل؛ تعلّموها أيها الجهلة؛ تعلّم أنه لا أحد يجرؤ على إخراجك من جامع تقوم عليه، لأن آية الأمانات؛ نزلت في عثمان بن طلحة - سادن الكعبة المشرفة- يوم أخذوا منه مفتاح الكعبة الشريفة، فردّه عليه الرسول الكريم (ﷺ) نفسه؛ ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ النساء: ٥٨؛ ترى هل ردّ الرسول الكريم (ﷺ) ملكا أو وزيرا إلى عمله بنفسه؟!.

حتى متى تبقون حمقى وجهلة؟!

يجب إنشاء مدارس لتعليم أصول التسول، كما ينبغي إعادة كتابة تأريخ التسول، والإعلان عن إبداعات المتسولين بتسليط الأضواء الإعلامية؛ الكاشفة عليها)، هذا كله صحيح، ومطالبهم -وإن لم تكن مشروعة فهي- مطالبه، لذا يتمنى تحقيقها، لكن كيف، وهو لا يعرف الأمير؟!.

كيف، وهو لا يستطيع الدخول على الأمير؟!.

كيف يقول لهم هذا؟!.

كيف يخبرهم أن ابنته -وحدها- قادرة على أن تدخل على الأمير وتراه؟!.

لم يتمكن من ذلك؛ كان خجلا من قوله، فكانوا يعيدون عليه الأمر ويكررونه، ويعدهم، ثم يتحدث إلى الفتاة المشغولة بخطبتها؛ أكثر من انشغالها بحبها الأول للمتسولين؟!.

لقد كان يأمل أن تطلب إلى الأمير ذلك، حين تستقر أمورها بعد الخطبة، أما هي، فكانت تفكر بشكل آخر؛ كانت تفكر بالسيطرة على الأمير، فإذا حدث ذلك؛ كان لها ما تريد.

أما المتسولون، فقد رأوا في ذلك خيانة، ذلك أنها لن تسيطر على الأمير إلا بواسطتهم؛ هذا صحيح، وكانت تعرف ذلك، لكنها تفكر في أمرين؛ الأول أن تسيطر على الأمير بنفسها، وبرأيها، ثاني الأمرين أنها تسيطر على المتسولين الذين تشغلهم عند الأمير؛ شرط أن يكونوا تحت عينيها، وبين يديها، وضمن تشكيلة تشكلها، لا يتحركون إلا بإذنها، يسمعون لها ويطيعون، فقد فعلت شيئا يمكن لغيرها من المتسولات أن تفعله، ومَن يدري؟!.

إنهن كثيرات، ستشبُّ منهن مَن تشبّ، وستكبر هي بالقياس إليهن، ثم أن الزواج -ومهما كان- مظنة المَلل، والشرع يبيح له الزواج والتسري، وهنَّ يوافقن على كل شيء تتحقق به مصالحهن ومصالح آبائهن الشخصية؛ سواء كانت شرعية أم لم تكن، فمن أين خرجت بنات الليل؟!.

ومَن مصدر بنات الهوى؟!.

وكم منهن سيطرت على أمير أو وزير أو تاجر كبير وغير هؤلاء كثير؟!.

إنهم يفكرون في أن يحصلوا على أعلى الرتب في الجيش والشرطة والعسس والدواوين، (آه ما ألذ أن أجلس على مكتب قائد العسس)!.

سأتصل -شخصيا- باللصوص، لأتفاهم مع شيوخهم على حصتي في ما يسرقون، والله -الذي لا إله سواه- لو رزؤوني بدرهم، لأقطّعَنَّ أيديهم وأرجلهم من خلاف، ولأعلقنهم، في جذوع النخل.

قبـــل الــزفــاف

حين انتهت جلسة مجلس الشعب، وظهرت رغبة المتسولين بالتسلل إلى مؤسسات الدولة، والتسلط عليها، وعلى وظائفها الكبرى؛ وبدت تجمعات لها أهداف متنوعة، وتشكيلات مختلفة داخل بعض هذه الجماعات، فَهِمَ بعض الوصوليين من وزراء الأمير ومستشاريه وكتابه أن موجة جماعة (فتنة) والمتسولين؛ في صعود، وأن عليهم ركوب هذه الموجة الطاغية، فمن لا يكون معها؛ يجد ما يدمره، فمن الذي يستطيع أن يذكر المتسولين بشيء؟!.

- ألم يجد شيخ (البيازين) وجماعته من يصدهم؟!.
- ألم يكرههم الأمير؟!.
- ألا يخافون مكر جماعة الأمير المتحالفة مع جماعة المتسولين؟!.
- ألم تكن تفرقته بين المتسولين والفقراء؛ تفرقة قائمة على أساس قرآني سليم؟!.

يصح قول القائل: (الجلوس على التل أسلم)، لكن بشرط ألا تفوته اللقمة الأدسم، واللقمة الأدسم اليوم؛ عند جماعة الأمير، وخطيبته المسيطرة على عقله؛ مع رهطها من جماعة المتسولين؛ من هنا بدؤوا يمهدون السبيل، لتنفيذ مطامح المتسولين، بمعرفة أفكارهم، ومن ثمة مطامحهم؛ هذا ما كان في قصر الأمير، وبلاطه ومن في يده الحل والعقد؛ من يريد للحل والعقد أن يبقى في يديه، لا في إحدى يديه؛ لم يكن هذا فحسب، لكن أحدهم كان يفكر في ما هو أبعد؛ دول الطوائف؛ تسود الأندلس، ولا يوجد أمير باقٍ على حاله؛ مطمئن على ماله؛ من هنا فمن يدري؟!.

لعل الأمير يموت في حرب أو في قَوْمة -ثورة- ثم تكون لي؛ هكذا فكر (أشعب الطفيلي) -الذي كان أحد مستشاري الأمير- فهكذا تمكن (ابن أبي

عامر) من السيطرة على السلطة، فقد مات الخليفة، وبقيت السيدة الجميلة (صبح)؛ تترنح في أمواج السياسة الداخلية والخارجية؛ لم ينقذها من ذلك كله غير (ابن أبى عامر)، وهذه فتاة جميلة؛ قد يموت عنها زوجها الأمير، فتترنح في أمواج السياسة القاهرة؛ في هذا الوقت بالذات، و(ابن أبى عامر) ليس أفضل مني ولا أكفئ ولا أجمل، فما لي لا أكون بديله عند (فتنة)؟!.

هذا بعض ما كان يدور في قصر الأمير وبلاطه، لكن، ما كان أحد يجرؤ على التعبير عن شيء مما يجول في خاطره، فقد تكون الزوج جاسوسةً على زوجها، ومن هي المرأة التي ترضى بان تكون لها ضرة، ولو كانت أميرة (قرطبة)؟!.

بالعكس، فأميرة (قرطبة)؛ أحرى ألا تكون ضرتها، فحين تكون ضرة لها، فستكون الأميرة هي المدللة، أما الثانية، فستكون البائرة، ومن يدري؟!.

- لعله يطلّق البائرة، فأين تجد زوجا بدلا من زوجها؟!.
- من يتزوج طليقة زوج الأميرة؟!.
- على فكرة؛ هو زوج الأميرة في الليل، فما عمله في النهار؟!.

هذا كان بعض تهكم أبناء الشعب على هذه الحكاية التي طرأت على بال بعض مضحكيهم، ومن ثمة كانوا يتندرون بـ(الفتنة)، فيلعنونها، ويلعنون موقظها، كذلك كانوا يذمون الذهب (الفتان)، ويشتمونه، فإذا سألهم رجال الحرس والعسس والشرطة، ومَن إلى هؤلاء؛ عن هذا الذي يقولونه؛ تحججوا بحديث الرسول (ص) (الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها)، وإذا سألوهم عن (الفتان)؛ أجابوا أن بينهم وبين الذهب، مثل ما صنع الحداد، فهم لا يحبون الذهب الفتان، لذلك طفقوا يلعنونه، وهو كلام له شكل الكناية؛ ظاهره

صحيح، باطنه إنكار على الأمير وزوجه وأبيها، وهي كناية واضحة، لكن ليس لقاضٍ أن يسجن أحدا بسببها، فماذا يستطيع أن يقول والحدود تدرأ بالشبهات ولا حد هنا؟!.

لذا نصح بعض المستشارين الوصوليين الأمير، بأن يصدر قانونا يمنع من ذكر أسماء النساء وآبائهن، فهذا من العيب، فالمرأة عورة، لا ينبغي أن يذكر اسمها، فكيف وهي تُعرَّف باسم أبيها؟!.

هذا القانون؛ كان واضح الدلالة، وكان الناس يسخرون منه، لكن في سرّهم، أو بينهم وبين خلصائهم، فلا يظهر إلى الخارج، فـ(للحيطان آذان)، وقد سرَّ الأمير هذا الأمر، أما (فتنة)، فلم يكن ذلك الأمر يعنيها، ولا يعني أباها، لقد نالا من الشتم ما لم تنله الخمر على لسان مالك، لقد تكسرت نصال الشتم في آذانهم؛ على نصال الشتم، فلم يكن الأمر –أمر القانون- يعنيهما، لكنه سرهما على كل حال، وإن ساءهما من حيث أن اسميهما، لم يعودا يظهران على السنة العامة، ولو من باب الشتم، فلكل شيء؛ سلبياته وإيجابياته، وعلى كل حال، ومع أنها كانت تحفظ من شعر الغزل ما لا يحفظه (أبو نؤاس)، وتعرف من شأن الإغراء والإغواء، ما لا تعرفه شيطانة من بنات إبليس، فقد استعانت بأمها وأخواتها المتزوجات، وصديقاتها من المتسولات أو بنات الليل والهوى؛ المتنقلات بين الهوى والتسول، ليعلمنها وسائل إغراء الرجال، واستعانت بالعطارين لمعرفة ما يثير شهوة الرجال، ولم يفتها أن تتعرف على صاحبات العكاكيز، ممن كانت بنات العائلات الأندلسية؛ يتخوَّفْنَ منهن، لتعلم منهن ما يمكنها أن تعلمه، ولم يحرمها أحد ممَن استعانت بهم أو إحدى من استعانت

بهن من خبرة، فقد أغدقت المال بلا حساب، فقد رأت أنها ستأخذ الجمل بما حمل، وهو ما يستدعي أن تبذل من أجله ما تبذل، وهو ما كان الشعراء المنافقون -ومن على شاكلتهم من رجال الأمير- يفكرون به، فحين تأخذ الجمل بما حمل، فستكون في ملكيتهم.

كان أبوها وأخوتها وأبناء عمها وأزواج أخواتها وأزواج صديقاتها -ناهيك عن أصدقائها- متحفزين للحصول على شيء من مال الجمل، لكنهم كانوا متريِّثين، فالبنت لم تخرج من بيتها بعد، وهي لا تزال في ما بينهم؛ تعد عدتها للهجوم الحقيقي القاهر على الأمير، ومن ثمة؛ على الإمارة وشعبها، لكن قلوبهم كانت مثل الطير السجين في قفص؛ يرى السماء، ولا يستطيع الانطلاق إليها، إنهم يرون أموال البلاد تُجبى للأمير، وهم يتسولون اللقمة، كانوا يريدون الهجوم الظافر على هذا المال؛ قبل دخوله خزانة الأمير؛ أثناء دخوله الخزانة، بعد أن يدخل الخزانة؛ المهم أن يدخل إلى جيوبهم، والأهم أن يدخلها بسرعة البرق الخاطف، فـ(ما لا تناله اليوم، فقد لا تناله أبدا)، و(بيضة اليوم؛ خير من دجاجة الغد)، و(عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة)؛ كانوا يفكرون بموجب هذه القواعد الذهبية التي تشغل أفكارهم؛ أحدهم؛ يريد أن يدخل الجيش، وقد سمع أحد قادة الجيوش يقول: (مخصصات الجندي تخرج من بيت المال قالب ثلج، ثم تصله بعض ماء بارد)؛ هكذا يتصرف الضباط بمخصصات الجند المالية، أما أنا، فإذا وصل إليَّ قالب الثلج، فسآخذ أكثره، وليصل إلى الجندي ماءً مسكوبا، ما لي وللجندي؟!.

- أكل أم لم يأكل؟!
- لبس أم لم يلبس؟!
- قاتل أم لم يقاتل؟!

المهم أن يمتلئ جيبي بالنقود، وخزانتي بحجج الأملاك؛ آه من الإيجار!، أما جابي الزكاة والخمس، فكان يرى أنه أفضل وزير للمالية، فقد كان يضرب الناس، حتى يعترفوا بما يمتلكون، وما لا يمتلكون، فيزكيه ويخمسه، ثم لا يعيد منه شيئا، صحيح أنه (يخنصر) شيئا مما يزكيه ويخمسه لنفسه، لكن الأكثر؛ يذهب إلى بيت المال، فأحسن وظيفة له هي بيت مال المسلمين الذي يتصرّف به الأمير، وكأنه ورثه عن أبيه، (أما أنا، فلن أدع للأمير شيئا غير ما يأكله؛ هو وسيدتنا المصون. أما الشعب، فمَن الذي فكّر فيه ومتى تم التفكير به؟!) كان شيخ الجامع يلعن قائد الجيش المنتظر، وصاحب بيت المال الذي لن يترك لقائد الجيش قطميرا، ويتساءل:- (لا أدري لماذا يسأل الناس عن الصوم والصلاة كثيرا، ولا يسألون عن الخمس والزكاة إلا بالقطارة؟، كان تلميذه الواعي الظريف؛ يسأله: (يا شيخ، لماذا تريدهم أن يسألوا عن الخمس والزكاة)؟!.

➢ ألا يكفيك ما عندك؟!

لو أنك حوّلت ما عندك من مال؛ إلى مصانع ومزارع ومتاجر؛ تعمل بالحق، فعرضت الاقتصاد الإسلامي على حقيقته؛ يشغّل العاطلين، وينقذ الناس من الفقر، وييسر للناس التخلص من التسول، أما كان لك أفضل من المال المكنوز الذي يأكله التضخم الاقتصادي وتتحمل معه عقاب الله لأهل الكنوز؟!

ألم تسمع قط قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ التوبة: ٣٤ - ٣٥، وانزعج منه المتسولون، كما انزعج منه الشيخ الذي غمز للمتسولين أن أخرجوه من المسجد، فأخرج مذموما مدحورا –لئلا يسمع مثل هذا الكلام أحد من بَعْد– وذهب الشيخ إلى أبيه يعتذر عما حدث، ويخبره أنه يخاف على الولد الطويل اللسان؛ خطر المتسولين المتزايد، فلو أحب أن يعلِّمه في البيت، لكان أفضل، ووافق الأب المحب لتعليم ابنه على مقترح الشيخ، فزاد في أجره، وأمر العيال، بألا يخرج الشيخ إلا إذا تغدّى، لكن أين هذا من منصب قاضي القضاة الذي يحلم به؟!.

(إذا جاءني منصب قاضي القضاة، أأتخلى عنه كما فعل (البهلول) يوم خرج ممتطيا قصبة طويلة؛ يضربها بقصبة قصيرة وينادي على الصبيان:- (احذروا أن يدهسكم الحصان)، ليصبح شيخ عقلاء المجانين في الكوفة، بدلا من أن يصبح قاضي القضاة في بغداد؟!.

و(أبو حنيفة)؛ يعينه (المنصور) قاضيا للقضاة، ثم يدعي أنه:- (لا يصلح للقضاء)، وحين يكذبه (المنصور)؛ يصعقه قائلا:- (لو كنت صادقا، فأنا لا أصلح للقضاء، ولو كنت كاذبا، فكيف يكون الكاذب قاضيا للقضاة)؟!

ويسدان الطريق في وجه أن يكون الواحد منهما قاضيا للقضاة، أما أنا، فآه، أتأتيني قضية لا أنال حظي الشرعي وغير الشرعي منها؟!.

أهم قضية؛ قضية النساء؛ لن أتخلى عن كوني فوالا وعداد نجم، حتى لو تخلّى لي الأمير عن إمارته وعن أميرته، ما أحلى النساء اللاتي يطلبن مساعدتي؟!

وما أكرمهن في مال وفي غير ذلك! من أين أتمكن من شرب الخمر، وتعلم قول الغزل؟!.

ما عشقناك للصفات ولكن نحن قوم إذا نظرنا عشقنا

آه لو تم تعييني قاضيا للقضاة، سأفعل الأفاعيل، سأكون عكس (المنذر ابن سعيد البلوطي)؛ على طول الخط، لقد كان إمامهم وعالمهم وفقيههم وخطيبهم؛ كل ذلك صحيح، ومع ذلك، فقد استحمقه (ابن حزم) في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف)؛ أنا يستحمقني أحد ولا أقطع رقبته؟!.

أأقطع رقبته؟!

بل أقطعه تقطيعا؛ أقطعه إربا إربا، أقطعه حتى يموت، وربما آمر بمعالجته، فإذا ما صحَّ بعض الصحة، عدت إلى تعذيبه).

هكذا كان كل منهم يتلمظ للانقضاض على الصيد المنتظر، أما هي، فكانت تفكر بطريقة أخرى، (نعم؛ هم يستحقون المكان الرفيع، والجاه الحسن، لكن لكل حادثة حديث، ومن يخدمني أقدمه، أما مَن قد يتنمّر عليّ، فالله المعطي لكل امرئ ما سعى ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم: ٤٠ - ٤١.

إنها ستنال كل ذلك العز لنفسها لا لأحد إلا إذا كان يخدمها، فمَن ذا الذي أعطاها فلسا يوم كانت في كار التسول، ثم لم يكن له معها شأن؟!.

صحيح أن للناس في ما يعشقون مذاهب، وأن بعضهم يُعطي في سبيل الله: (أما أنا، فلا أعطي إلا لمن يخلص في خدمتي، فيستحق إكرامي، وإكرامه له سيكون معقولا، ألم يكن متسولا)؟!

هؤلاء المتسولون، لا بد من كبتهم، فإن الواحد منهم لو نال جبلين من ذهب، لذهب يتسول طمعا في ثالث، ولو حصل على الثالث، فلن يكف عن طلب الرابع، فمن منا لا يملك ما يشتري به ما يشاء من القصور والضياع؟!.

لكنها أموال مكدسة؛ مجمدة، وأنا لا أريد لأهلي أن تكوى جنوبهم وظهورهم في نار جهنم فكم ينبغي لهم أن يشكروا الله على أنني منهم، وأنني أحبهم، وسأخلصهم من نار جهنم أو من بعضها على الأقل، إذ سأسلبهم كل ما يكنزون من أموال، فأكنزها نيابة عنهم فأكوى بها بدلا منهم؟!

آه يا يوم عرسي!....

طغيان المتسولين

حين شاعت في (قرطبة)؛ قصة خطوبة الأمير على (فتنة بنت الفتان)؛ تطاول المتسولون على السلطان الذي ما كان متسول يحلم به؛ انتظروا يوما؛ يومين؛ ثلاثة أيام، لا انطلق المتسولون الذين في السجون، ولا انفتحت لهم أبواب الجامع الكبير، ولا صار منهم كاتب أو شاعر أو وزير، فلا قيمة أن تكون (فتنة بنت الفتان)؛ أميرة لـ(قرطبة)؟!.

أحس النابهون من المتسولين، باستراتيجية (فتنة) في إيصال أصدقائها وخدمها إلى السلطة، أما هم، فعليهم السلام، في السلطة؛ مَن خاف على مكانه، فراح يتقرّب إلى الأميرة الجديدة؛ عبر المتسولين؛ يحقق أهدافهم؛ ينجز طلباتهم التي لا تنتهي خصوصا وأن وسيلتهم إلى الناس؛ آيات من القرآن الكريم، ودعوات إلى الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىَ- بمساعدة مَن يساعدهم، ومَن يدري ماذا يحصل بعد ذلك؟!

ما يحصل بعد ذلك غير مهم بالنسبة للوصوليين؛ المهم أن مكانتهم ترتفع، وليذهب كل ما سواهم إلى الجحيم؛ هنا استغلَّ المتسولون؛ تراخي القانون؛ انفتح أمامهم باب جامع (قرطبة) الذي كان مغلقا، بل انفتحت لهم أبوابه، والأهم من ذلك؛ انفتاح أبواب خزائن خيراته ومبراته، إنها خزائن زاخرة بالأموال؛ ناهيك عن التحف والمجوهرات؛ سعيد مَن تنفتح له خزائن جامع (قرطبة) دون مراعاة للقانون، وفي حالة عدم انفتاح خزائنه لهم، فلا قدسية له، ولا بأس في أن تحترق خزائنه؛ ألم يقل (شمشون): (عليَّ وعلى أعدائي يا رب)؟!

هم كذلك لا يهتمون بـ(قرطبة) ولا بجامعها ولا بأميرها ولا بأميرتها إلا بالمقدار الذي تتحقق به مصالحهم؛ مشروعة كانت أم غير مشروعة، فالشرع -عندهم- حيث تكون المصلحة.

كانت كلمة (الله كريم)؛ كلمة السر التي يدخلون عبرها إلى أي مكان يريدون، والمفتاح الذي يفتح لهم كل المغاليق إلا مغلاق خزائن جامع (قرطبة) وخزائن بيت مال المسلمين التي هي بالحقيقة؛ خزائن بيت مال الأمير التي يتصرّف بها دون ما حسيب أو رقيب تقريبا، لماذا يستطيع هو أن يتصرّف ببيت مال المسلمين، ولا يستطيعون هم أن يتصرّفوا بخزانة جامع (قرطبة)؟!.

- ألم تجتمع أموال هذه الخزانة بالتسول؟!.
- ألا يحمل خادم الجامع -في كل وقت صلاة؛ قبل الصلاة أو بعدها- إناءً يجمع به المال من المتصدقين للجامع؟!.
- أليس في كل باب من أبواب الجامع؛ صندوق توضع فيه الأموال لصيانة الجامع والصرف عليه؟!.
- أليست النذور؛ من مصادر خزانة الجامع المالية؟!.
- ماذا يفعل المتسولون؛ غير هذا؟!.
- غير أن يمدوا أيديهم صامتين، فيضع المحسنون في أيديهم شيئا؟!.
- ماذا يفعلون غير أن يدعوا لَمن يضع في أيديهم أو أوانيهم بعض مال؟!.
- ماذا يفعلون أكثر من أن يقرأ بعضهم آيات من القرآن الكريم؛ تنبيها إليهم، وإلى تسولهم؟!.

- هل ينبغي لهم وضع صناديق على أبواب بيوتهم ليسرقها اللصوص، كما يسرقون الكثير مما يصل إلى الجامع؟!.
- أما النذور، فهم أحق بها، أليسوا مساكين فقراء؛ يتكففون الناس؟!.

هذا هو القرآن الكريم؛ يوشك ألا تمر كفارة فيه إلا وبعضها إطعام مسكين أو جماعة من المساكين، وهم المساكين، فلماذا يحرمهم القانون؛ من حقوقهم المكتسبة؟!.

هكذا كانوا يفكرون، وكان بعض ما يفكرون به يتحقق؛ صحيح أن خازن جامع (قرطبة)؛ ممن لا يؤتمن على حبة قمح، لكنه إداري من نوع رفيع، إنه يشارك جماعته في السرقة؛ قبل أن تدخل السجلات، أما حينما تدخل السجلات، فلا يخرج منها شيء إلا بالقانون؛ القانون؛ يصبح فوق الجميع، وفوق كل شيء، أما قبل فتح الدفاتر، فالمجال مفتوح، له ولمن يعملون معه في السرقة؛ الأمير؛ يعرف بعض هذا، لكنه يغض الطرف عنه، إنه مستفيد منه كثيرا، فهذا الذي يدخل في السجلات؛ يحسب له حين يلاحظ الجامع، ولا يعطي شيئا لهذه الملحوظات، أما لو تمت سرقة المال كله، فسيكون عليه أن يبني الجامع من بيت مال المسلمين الذي ليس فيه ما يكفي الشعراء المداحين؛ ترى أيغني الجامع كذلك؟!.

ولو أنه لم يلحظ الجامع، لثار عليه الفقهاء، أثاروا عليه الشعب، فليأخذ كلٌّ ما يسد فمه، وليسكت الجميع على مضض.

لم تنفتح قصور (قرطبة) وحدها أمام المتسولين، ولا انفتحت جوامعها فحسب، لكن انفتحت منتزهاتها كذلك للمتسولين، والمتسولات؛ صحيح أن

تلك المنتزهات؛ لم تكن في معزل عن المتسولين والمتسولات، لكن أضيفت إليهم الآن؛ بنات الهوى اللاتي يتسولْنَ اسماً، ويعرضْنَ أجسادهن على المشترين فعلا؛ هنَّ متحجبات؛ رؤوسهن؛ موضوع على نصفها الحجاب؛ شعرهن معروض للهواء والهوى؛ يمكن أن يسقط النصيف متى شاءت، والصدر والبطن مكشوفان؛ على عينك يا تاجر)، فمن يستطيع أن يقول:- (هذه تكشف بضاعتها للمشترين)؟!.

هنا تظهر (فتنة) أو الأميرة، لتكسر قوانين شرطة الآداب؛ المحتاجة إلى شيء من الآداب؛ لم يكن القانون الصادر بمنع ذكر اسم (فتنة) و(الفتان) تلميحا أو تصريحا؛ قد تنبه إلى ما سيفعله المتسولون، فقد منع القانون ذكر هذين الاسمين؛ تهكما أو في ما هو قريب من التهكم، أما الاستنجاد بالأميرة، فهو شيء مطلوب؛ ناهيك عن أن يكون مستنكرا؛ على هذا الأساس؛ كانت الشرطة تخاف من مشكلة التفرقة بين التهكم وبين الاستنجاد والاستغاثة، وفي حالة عدم التنبه، واتهام المتسولين بالتهكم، فقد كانت عصي المتسولين المتسلطين بالأميرة؛ تلهب ظهور الشرطة التي طالما فرّت من أيدي المتسولين فرارها من قَسْوَرة).

هذا حال صغار المتسولين وبنات الهوى، أما المتسولون المتنفذون، فحدث ولا حرج؛ كان الأمير محتاجا إلى كاتب، فطلبت إليه الأميرة أن يشغِّل في هذا المنصب أخاها المتشاعر؛ أخبرها أن هذا المنصب؛ محتاج إلى مَن يكتب فيه، فأخبرته أنها تجيد الكتابة، وأنها ستدرب أخاها على الكتابة في سنتين، وفي حالة احتياجه إلى كاتب، فهي التي ستكتب له حتى يتعلّم أخوها الكتابة، ولما لم

يكن هذا ممكنا من الناحية البروتوكولية، فقد رأى الأمير تعيين أخيها كاتبا، وتعيين كاتب آخر يساعده، وبهذا صار أخوها المتشاعر؛ رئيسا للكتاب، فما أحلى هذا؟!

و(عَلَ هَلْ رنّة طحينج ناعم)؛ استمرت رحى المدينة تدور؛ دوران الثور على الساقية، ومع ذلك، فهي تدور.

وتقرر يوم الزفاف، فصدرت التعليمات، بأن تتم الأفراح، والليالي الملاح؛ أربعين يوما بلياليها؛ لا يطبخ الناس شيئا؛ كل شيء من المأكول والمشروب؛ على حساب الأمير؛ فرحا بيوم زفافه، وفي حالة موت ميت، لا يقام له العزاء؛ في تلك الأيام والليالي الأربعين، أما بالنسبة للتسول، فيمنع في هذه الأيام، وتلك الليالي؛ منعا باتا؛ كان هذا مثار غضب المتسولين، فلماذا يتم منعهم من العمل؟!.

- **هل هو عمل حرام؟!**

في عهد رسول الله (ﷺ) مدح الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- (عليا) و(الزهراء) وابنيهما (الحسن) و(الحسين) على أنهم أطعموا الطعام مسكينا ويتيما وأسيرا ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ الإنسان: ٧ – ٨، فلماذا يحرم الناس هذا الأجر؛ في هذا الوقت؟!.

ولماذا لم يمنع الرسول (ﷺ) المتسولين من التسول؛ يوم زفاف (فاطمة بنت محمد) (ﷺ)، ويمنع الأمير هذا العمل في يوم زفافه؟!.

ويجيب قانونيو الأمير على هذا بأن الرسول (ﷺ) و(عليا) لم يطعما كل سكان المدينة، بينما يطعم الأمير الجميع، ثم أنكم وقد طعمتم، ففيمَ تطمعون؟!.

هنا كان رد محامي المتسولين أنه لو حصل الإنسان على جبلين من ذهبن لذهب يطلب الثالث، ولو حصل عليه، لما امتنع عن طلب الرابع ثم الخامس بلا توقف؛ هنا كان يقول أنصار الأمير للمتسولين: (سينثر الأمير الحلوى، وسيكون في لفائف الحلوى جوائز لَمن يحصل عليها، فقد تكون مبالغ من المال، وقد تكون أراضي وضياعا، وقد تكون وظائف ورواتب، وقد تكون أشياء أخرى، فيجيب المتسولون، بأن مثل هذا حدث في عهد المأمون؛ يوم زفافه على (بوران)، ومع ذلك؛ لم يحرم المتسولين من التسول.

ولم ينفع فيهم جدال ولا نقاش، بالتي هي أحسن أو بغيرها، وفي حالة استعمال غيرها؛ كانت عصيهم تلسع الظهور، فما كان لأحدٍ الظهورُ بإزائهم؛ لقد كانوا قساة قسوة تحسدهم الوحوش عليها، لقد كانوا من أحفاد أكالة الأكباد.

وانتعشت مهنة التسوّل، حتى صارت محنة في (قرطبة) وسائر بلاد (الأندلس) -التي تقلدها- كل المتسكعين والمتشردين وأصحاب الطيور والحيوانات المتكاسرة؛ كلهم –وغيرهم- انتموا إلى نقابة الشحاذين؛ التي صارت من أكبر نقابات (قرطبة) وأقواها، فقد صارت للمتسولين سلطة وسطوة، وصار للناس منهم رهبة، ولبعضهم فيهم مصلحة ورغبة، فكنت إذا أردت تخويف طفل قلت له: (سأدعو لك المتسول)، وإذا رأى طفل متسولا

على بعد مائة متر؛ فرَّ من وجهه ودخل بيته، حتى أن المتسولين الحقيقيين؛ جاعوا وضاعوا؛ في زمن المتسولين.

كان الشعب جائعا، فكان ينتظر رحمة الأمير، وليلة زفافه؛ مَن ذا الذي يستطيع أكل اللحم في الشهر مرة؛ مع أن القصابين يذبحون ثلاث مرات في الأسبوع؟!.

يقولون أنه لن يخلوَ طعام من لحم، يقولون أن أثمان اللحم ارتفعت ارتفاعا جنونيا، (وماذا يضير ارتفاعها أو عدم ارتفاعها؟!.

إنني لا أستطيع أن آكلها بالسعر القديم، فلا أهمية لسعرها الجديد)؛ يقولون أن سيدات إحدى المحلات الثرية؛ قد اضربْنَ عن شراء اللحم لارتفاع ثمنه، (ليُضرِبْنَ وليرِيْنَ حال الفقيرات).

هذا مما كان يدور في القصبات وفي الكُوَر القرطبية، فماذا عن الشرطة والجيش؟

لقد اضطرب شأن الشرطة، أما الجيش، فقد ألتهى بالرقص والغناء، وانشغلت موسيقى الجيش بموسيقى الترقيص والاستعراضات العسكرية، أما التدريب العسكري، فهو مؤجل بعض الشيء؛ (مَن الذي سيغزو (قرطبة)، وأميرها في حالة فرح)؟!

الأخبار؛ وصلت إلى الأمير من جانب، وإلى شيخ (البيازين) من جانب آخر أن البرابر؛ يستعدون لغزو (قرطبة)؛ من المدن المجاورة، أما ملك (الروم)، فقد هيأ الجيش، وهو بصدد الزحف على (قرطبة)، فهذا أنسب وقت، وأما المتسولون، فقد رأوها فرصة العمر، فهم يستطيعون التفاهم مع البرابر من جهة، ومع ملك (الروم)؛ من جهة أخرى، و(الجيش نائم غفيان؛

يمكن هزمه بسهولة، بل هو مهزوم مهزوم، فمتى تمكن من التغلّب على غير الشعب)؟!.

وعلم الأمير، كما علم شيخ (البيازين) بانطلاق ممثلي المتسولين، بعض إلى البرابر، وبعض آخر إلى ملك (الروم) للتفاهم على تسليم (قرطبة) والثمن المدفوع، لهذا التسليم، وحار الأمير؛ الشعب -بقيادة شيخ (البيازين)- ناقم عليه، والمتسولون في طريقهم إلى خيانته، فما العمل؟!.

كان الأمير محتاجا إلى مساعدتها؛ يريد التحدث إليها حول المأزق الذي هو فيه، أما هي، فكانت جائعة؛ أمرت الخدم، بوضع الطعام في الغرفة الخاصة بأكلها؛ (القضية خطيرة؛ أنا محتاج إلى التحدث إليك)، (وأنا جائعة، إذا جاعت البطون؛ عميت العيون، وكلّت الأفكار)، (فلتأكلي ولأحدثك)، (والشرط الذي بيننا؟!)؛ تذكّر الأمير ذلك الشرط، وأراد أن يتبين سبب اشتراطها إياه، فسأل إحدى جواريه المكلفات بخدمتها ممَن كُنَّ يطمعْنَ في تسريه بهن، عما إذا كان في نوافذ الغرفة ما يتيح له أن يرى ماذا تفعل الأميرة، فأخبرته أن ذلك ممكن، وأنها قد رأت ما تفعله الأميرة، لكنها تخاف إن أخبرته ألا يصدقها، ونظر الأمير إلى الأميرة؛ من مكان لا تدري أنه يشرف على الغرفة، فإذا بها قد قسمت أرغفة الخبز إلى أقسام غير متناسبة، وإذا بها قد وضعت أطباق الطعام؛ كل طبق في مكان، وإذا بها تتسوّل اللقمة:- (المال مال الله، والسخي حبيب الله؛ أعطونا مما أعطاكم الله) وتأخذ قطعة الخبز التي تقف أمامها أو الطبق الذي تقف أمامه، حتى إذا ما انتهت من ذلك كله؛ جمعته حيث كان وبدأت الأكل؛ هنا تنبه الأمير إلى قول شيخ (البيازين)، لقد كان عارفا بالأمر، فـ(عادة أل بالبدن، ما يغيّرها إلا الكفن) فكيف أنقذ نفسي وشعبي من هذا الغم؟!.

صعــوبة الطـــلاق

على عجل؛ استجاب الملك، لرئيس جواسيسه في (قرطبة)، فاستقبله استقبالا لا يحلم بمثله أمثاله؛ بعد الديباجة المعتادة من اتباع الملوك -سواء كانوا صادقين أو متزلفين- بدأ الجد في الحديث: (أوجز لي الأوضاع في (قرطبة) بلا رتوش)؛ (أمر مولاي، النظام متهرّئ؛ القانون لا يحترمه إلا القلة من المثقفين؛ المتسولون مسيطرون سيطرة لا فكاك منها؛ الجيش منقسم؛ الفقراء ضد السلطة؛ الحياة؛ توشك أن تكون تعيسة؛ العطالة فاشية؛ المصانع محطمة؛ المزارع مخرَبة؛ الأسعار مرتفعة؛ كل شيء من الخارج؛ توشك (قرطبة) الجميلة؛ أن تكون مزبلة العالم؛ كل ما فيها سيئ؛ كل مَن فيها متذمّر حتى المتسولون)؛ المتسولون؟!

لماذا يتذمرون، والسلطة توشك أن تكون بأيديهم؟!)؛ (شعارهم -يا مولاي- من كان عنده جبلان من ذهب؛ ذهب لجلب الثالث، فإذا جلبه؛ ذهب لجلب الرابع وهكذا دواليك؛ هذا هو شعار المتسولين الذي أذاعه أتباع مولاي بينهم)؛ (هذا حسن، فما هي المشكلة؟!، (ليست هناك مشكلة -يا مولاي- فأنا أحدث جلالتكم بما جرى، لتكونوا على بينة مما فعل اتباع جلالتكم، فتتصوروا ما ينبغي عمله، هذه الفتاة (فتنة)؛ نحن الذين نجّمناها؛ علمناها؛ فطناها؛ أملناها؛ دون أن تعلم لَمن تشتغل؛ هي تظن أنها تتعلم، ثم تعمل بعلمها لنفسها، أما أتباع جلالة الملك، فهم يشغّلونها، لصالح المملكة)؛ (هذا حسن، ثم ماذا؟!)؛ (جارية بني حزم -التي أرشدتها إلى مصطنع آل حزم؛ من أتباع الملك، وهي لا تعلم، أكثر من ذلك، فالشاعر الذي طلب إليه

الأمير أن يجيز؛ لم يكن من أتباع الأمير؛ كان مدسوسا عليه، فكانت الخطة؛ على أعلى درجات النجاح؛ تزوّج الأمير (فتنة) الطموحة الطاغية الطموح، فقرّبت مَن قرّبت، وأبعدت مَن أبعدت؛ قدمت من قدمت، وأخرت من أخرت، ولم يعنِ اتباع جلالة الملك ذلك، حتى إذا تعرّضت لأحد أتباع جلالة الملك في الإمارة؛ وجّه أتباع الملك من أصدقائها لها نصيحة بترك هذا الفعل، فترتد عن ذلك الأمر، لقد كانت دودة الأرض؛ تأكل تلك الإمارة التي كانت فاتنة؛ أحسّ الأمير؛ أن الأوضاع اختلت في الإمارة، فأرسل إلى خادمكم بوصفه المستشار الخاص به؛ يستشيره في الأمر، فرأيت أن في سجون الإمارة؛ جملة من اللصوص والشقاة، والإمارة؛ تصرف على كل منهم، ولو رغيفين في كل يوم، لكن هذا حرام فيهم، ثم أن تلك السجون؛ تحتاج إلى حرس غلاظ شداد؛ لا يعصون سمو الأمير ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وأن هؤلاء الحرس؛ منشغلون بهؤلاء المسجونين، وأن هؤلاء الحرس؛ يمكن أن يكونوا في الجيش أنفع لسمو الأمير، وما أجمل أن تعلن الإمارة أنها تغلق كل السجون، فتتخلص من مشاكل منظمات حقوق الإنسان؛ صحيح أنها لا تعنى بحقوق الإنسان البريء إلا أنها تدوّخ الحكومات، بالحديث عن حقوق الإنسان الآخر، لتتخلّص الإمارة؛ من خصومها السياسيين كذلك، بضربة واحدة، بل بلعبة واحدة)؛ (ما هذه الضربة؟!.

➢ **وما تلك اللعبة؟!**

لو حدث هذا كله دفعة واحدة، فأنت تستحق أن تكون من وزراء جلالة الملك، بل أن تكون كبير وزرائه، فمَن يفضلك في هذا المركز؟!)؛ (يا مولاي؛

ليس هذا هو المهم، فخيرك سابق، وقد سمعت أنه يريد الأمر بتبييض السجون، فأوحيت له بأن تبييض السجون؛ يكون بقتل المعارضين، وإطلاق سراح المجرمين –بمناسبة عيد زفاف سموه الميمون– ففرح بهذا الإيحاء، وأدى ذلك؛ إلى إغلاق السجون المعروفة والتخلص منها ومن سكانها؛ فذلك أفضل من تركها كما كانت، فكانت تلك هي الضربة القاصمة التي تمثلت في اشتداد كره المعارضين له وانفلات المجرمين من قيودهم وفعل ما يحبون أن يفعلوه بفقراء الناس وأثريائهم، فأما الفقراء، فهم مضطهدون مظلومون خائفون من كل أحد، ومنهم الشقاة والمجرمون، وأما الأثرياء، فهم يخافون على أموالهم المكدسة، وتجارتهم المتحركة، ويستطيع شقاة (قرطبة) ومجرموها –المطلق سراحهم– أن يستقطبوا شقاة المملكة ومجرميها، فتتخلص المملكة منهم، وتبتلى بهم (قرطبة).

أما المعارضون من سياسيي المملكة، فيستطيعون اللجوء إلى (قرطبة)، فبذلك تتخلص المملكة منهم، ويكون لها يد تتدخل بها في (قرطبة)، إذا أرادت التدخل المباشر، فـ(قرطبة) ملجئ لأعداء المملكة، ويمكن للمملكة أن تخترق هذا النوع من المعارضين، ببعض رجالها الذين يوحون للمعارضين بما ينفع المملكة، فيكون المعارضون بإزاء أحد أمرين؛ أولهما أن يفوتهم مراد المملكة، فيفعلوا ما يوحى به لهم، فتستثمره المملكة كما تحب، وثانيهما أن يكتشف المعارضون أن الذي يوحى به إليهم؛ مما لا يناسبهم، فلا يفعلونه، بل يفعله رجال المملكة المخترقون للمعارضين، وينسبونه إليهم، وتشتغل وسائل الإعلام، فتخلط الحابل بالنابل ويضيع الحق بالباطل، وفي كل الأحوال،

فـ(قرطبة) هي المتضررة)؛ (كيف يقبل هذا الرجل؛ هذا كله؟!)؛ (هو يتصوّر أنه يعتبر بالتاريخ، وقد ذكّرته أن (سيف بن ذي يزن) لم يتمكن من تخليص (اليمن) من الأحباش إلا بالسجناء الفرس، فلو أنه استقبل سجناء المملكة، للدفاع عنه وعن عرشه، لنجا، وهم رجال أقوياء؛ يرون أنه أنقذهم من السجن، فلا بد أن تكون له عندهم دالة)، (واقتنع؟!)؛ (لم يكن أمامه غير أن يقتنع، لأن كل شيء قد تدمر في (قرطبة) الشيء الوحيد الذي ما يزال فيه شيء من الصمود؛ هو الفقراء العاملون؛ الذين أكلت البطالة ما جمعوا، وما جمعوا إلا قليلا، وهم المخيفون في هذا المنظر كله، لكن الأوراق مختلطة، والأفكار محترقة، والقوات العسكرية مخترقة، فكل ذلك؛ يجعل المملكة في السليم، وأكثر من ذلك، فبمقدور المملكة؛ أن تستقبل الفارين من الهم الذي يسود (قرطبة)، وبين أيديهم كل القوى؛ قوة المال، وقوة العقل، وقوة الذراع)؛ (كيف يمكن هذا؟!)؛ (هذا ممكن بإشعارهم أن البقاء في (قرطبة)؛ أمر محال، ففي (قرطبة) يمكن تشغيل الفرق القذرة؛ التي تموّل نفسها بنفسها حين تختطف أصحاب المال والعقالَ وأبناءَهم، فتساوم عليهم، وقد تطلق سراحهم أو تقتلهم بعد أخذ المعلوم، فمن الذي يستطيع تطبيق القانون وكيف؟!)؛ (هذا كلام جيد، لكنه خطير إذا ظهر وعرفه الناس)، لماذا يظهر يا جلالة الملك؟!

- ومَن الذي يظهره؟! .
- ولو ظهر، فمَن الذي يسمعه؟!.
- ولو تم سماعه، فمن الذي يصدقه؟!.
- ولو صدقه، فماذا يستطيع أن يفعل؟!.

– ولو كان قادرا على الفعل، ألا يوجد مَن يخلّص المملكة منه؟!.

هناك ما هو أهم من هذا؛ يجدر بجلالة الملك أن يفكر فيه)، (وما هو هذا الشيء الذي هو أهم من هذا وينبغي أن أفكر فيه؟!)؛ (هذا الأمر –يا جلالة الملك؛ أن تتفاهم مع ملك (الروم)– الذي يفكر في غزو (قرطبة)، لتتفاهموا على ثمن مروره بالمملكة سالما غانما آمنا، فليس طبيعيا أن يمر بالمملكة، ليغزو أخانا الأمير القرطبي؛ مجانا)؛ (هذه فاتتك، فهل يمكن للكُرْكي الذي أخرج العظمة من حلقوم الذئب؛ أن يطالبه بأجرة الطبيب المعالج؟!.

دعك من هذا، وابقَ في ما أنت فيه من عملك؛ أنجز ما أنت بصدده، ولك على الملك؛ ما يغنيك، ويبقي ذكرك ذكرا مرفوعا معروفا بين العظماء، لكن أخبرني هل نحن اللاعبون الوحيدون في (قرطبة)؟!)؛ (لسنا اللاعبين الوحيدين في (قرطبة)، فـ(قرطبة) تشبه امرأة يلعب الكثيرون في سرتها وفي ما تحت سرتها وبين ثدييها، وهناك من يعضعض خديها وشفتيها، فهي تشبه الطير المرفرف الذي تتناوله السكاكين؛ نهشا لا ذبحا، لكننا نحن اللاعبون الأهم)؛ (هذا عجيب؛ إذن أخبرني أين شعراء (قرطبة) ومثقفوها المشهورون؛ المشهود لهم بالحذق والكفاية؟!.

➢ **أين متديّنوها القادرون على إيقاف أدعياء الدين عند حدهم؟!**.

يشهد الله؛ ما كان في (قرطبة) شيء يخيف أحدا غير مثقفيها ومفكريها ومتدينيها، فأين حلَّ الدهر بكل هؤلاء؟!)؛ (يا مولاي الملك؛ هؤلاء كلهم صامتون أو مهاجرون، ولو تكلموا، أخذهم الجهلة المسيطرون، ماذا يستطيع عاقل أن يقول لأمير قد غلبته امرأة على عقله؟!.

ثم ماذا يستطيع أن يفعل عاقل بإزاء قوم يقررون أنه حيث ما تكون المصلحة، يكون الشرع؟!.

هذا هو الحال في (قرطبة)، إن سيوف السلطة والجهل والجوع؛ كلها مسلّطة على رقابهم، والدولة تقيؤهم إلى الخارج، ولا أرى أحدا يذلهم ويستفيد منهم – على الرغم منهم- خيرا من سكان المملكة، فلنقبلهم، فيكون نفعهم لنا، لنقبلهم بوصفهم سائحين، فإذا ما نفدت أموالهم اضطروا للعمل في هذه البلاد، فإذا ما عملوا، كان عملهم غير قانوني، لذا يتفق معهم المواطن على ما يتفق معهم عليه، فإذا مضى وقت مناسب، وأراد العامل أجرته؛ قال له المشغّل:- (يعطيك العافية) أو (يعطيك الله) أو (أنصرف بارك الله فيك)، ويضطر للانصراف، ولا يشتكي عليه، لأنه عامل غير قانوني)؛ (لكن أهل (قرطبة) مشهورون بعصبيتهم، فإذا ضرب أحد منهم أحدا من رعايانا، فماذا نفعل؟!)؛ (هذا ما نريده -يا جلالة الملك- نؤدبه، ونجعله عبرة لمَن يعتبر إن كان هناك مَن يجرؤ على فعل هذا، فهم أما معيلون لعوائل موجودة معهم لا بد من رعايتها، وأما أنهم يعيلون عوائل في (قرطبة)، فهم يحرصون على إيصال المعاش إليها، وهكذا لا يبقى من مخاوف جلالة الملك شيء)؛ (هنا بقي عندنا شيء آخر نريد أن نستفسر عنه هو:- إذا كانت هذه المرأة؛ قد فعلت به كل هذه الأفاعيل، فما له لا يتصرف معها؟!.

- يطلقها؟!.
- يحجبها عن الناس؟!.

يفعل معها ما يفعله الرجال مع نسائهم؟!؛ (يا جلالة الملك؛ هو عاجز عن هذا بأمور منها أنه يحبها، والحب أعمى -كما يعلم جلالة الملك- ومنها أنها

قيدته بالمتسولين، ومنها أن البلد قد تخرب، وصمت –أو أجبر على الصمت– المثقفون والعلماء والعقلاء والمتدينون، فلا كلام ولا فعل إلا للغوغاء، فماذا يفعل؟!)؛ (وأين شعراء العامريين وأدباؤهم من أمثال (ابن حزم) و(ابن شُهَيْد)؟!)؛ (كما قلت لجلالة الملك، أما المثقفون والصالحون، فقد صمتوا، وما عادوا قادرين إلا على أقل ما يمكنهم أن يعملوا، وأما الآخرون، فكما طبّلوا وزمّروا للعامريين، فهم يطبّلون ويزمّرون للأمير، وبعضهم يتمنى أن يجد من يطبل له أو يزمر، لذا لا يسمعهم أحد، وأما (ابن شهيد، فهذه رسائله للعامريين ومَن يمتون إليهم بصلة؛ تملؤها الأكاذيب؛ يطالبهم بالنقود، فلا يستجيب له أحد، وهو يعلن عن نفسه في سوق الخطباء والشعراء؛ دون أن يجد مشتريا، ألم تسمع حواره مع الإوزة في رسالة (التوابع والزوابع) حين قالت ما نصه:– ''ما الذي تحسن؟ قلت: ارتجال شعر، واقتضاب خطبة، على حكم المقترح والنصبة... وأنا لا أحسن غير ارتجال شعر، واقتضاب خطبة، على حكم المقترح والنصبة''...الخ، وكذا (ابن حزم)، فقد جعل كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف)؛ ميدانا يذكر فيه قدراته على الخطابة وقول الشعر، حتى ليفضل نفسه على أبي نواس مرة، وعلى كل الشعراء أخرى، فلا يجد مَن يشغِّله، بينما يشغّلون ابن عمه وخصمه (أبا المغيرة ابن حزم)، فيخاصمهم، ويعلن عن حبه للأمويين، فيصدّ ذلك عنه الأمراء والملوك، ثم يقف للفقهاء بالمرصاد، فيخوّفون منه الناس والسلاطين، حتى أنهم دعوا إلى إحراق كتبه)، فلما أحرق (المعتضد) كتب (ابن حزم) في (إشبيلية)؛ قال (ابن حزم متحرقا على كتبه:–

"فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل أن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون للّه من ستر"

و(لابن شهيد) و(ابن حزم)؛ أشباه ونظائر من طلاب الجاه وأصحاب المصالح فبقيت قلة من الشعراء الضعفاء؛ يمكن غمزها ولمزها؛ قادرة على القول؛ من أمثال (السميسر) الذي يقول مثلا:-

"ناد الملوك وقل لهم ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في أسر العدى و قعدتم
وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا فعصا النبي شققتم"

(لكن (السميسر) لا يذم أمير (قرطبة) وحده، بل يذم ملوك (الأندلس)، وربما كل الملوك، لأنه يأمر بمناداة الملوك عامة دون تخصيص وبإطلاق دون تقييد)؛ (هذا صحيح يا جلالة الملك، لذلك وجهوا له من الشعراء من يذمه، وهونوا من شأنه ومن شأن الشعراء، حتى قال قائلهم:- (قول شاعر) كما يقول بعضهم:- (كلام جرايد)، كأنه يريد أن يقول:- (كلام لا قيمة له))؛ (ليس هذا مهما؛ هناك ما هو أهم من هذا؛ كيف يمكننا أن ندخل (قرطبة) بلا قتال؟)؛ (بمعنى إسقاط الأمير وضم (قرطبة) إلى مملكة جلالة الملك المعمورة)؟!.

(لا، ولكن ندخلها، فنكون فيها أقوى اللاعبين، إن لم نكن اللاعبين الوحيدين)؛ (هذا أمر يسير، فإن لم يكن يسيرا، أمكن تيسيره)؛ (وكيف؟!)؛ (يا

جلالة الملك؛ منذ أن دخلت الأميرة قصر الأمير؛ زوجا له؛ حملت معها كره أخته الكبرى -العانس- لها، وهم بصدد إقامة مهرجان للفروسية؛ يستعرضون فيه شباب الفرسان؛ تقف فيه الأميرات المستعدات للزواج؛ تنظرن إلى الفرسان، فإذا مالت إحداهن لفارس من الفرسان؛ رمته بما في يدها من وردة أو تفاحة أو ما إلى ذلك؛ مما يدله على أنها راغبة فيه، ويفهم الأمير ذلك كذلك، كما يفهم ذلك سواهما من النظارة والمستعرضين، ويغلب أن يكون الفرسان المستعرضون؛ من أهل الجاه والثراء، فإن رمت الأميرة أحدهم بما في يدها؛ لم يكن في ذلك ما يشين الأمير، لأن المرمي من أهل الجاه والثراء، فهو –وإن لم يكن كفءً للأميرة من حيث النسب، فإنه- يكافئها من حيث المال والجاه، أما إذا صادف كان في الفرسان المستعرضين؛ فقير شجاع، ومالت الأميرة إليه، أغناه أخوها بالمال، وساعدته الشجاعة على بلوغ المرام)؛ (كل هذا مفهوم، فما علاقتنا به؟!.

وكيف تستطيع المملكة أن تستغله لصالحها؟!)؛ (يا جلالة الملك، لجلالة الملك؛ أولاد أمراء، وإخوان أمراء، فلو أنه شرف (قرطبة) بأحد أبنائه أو أحد إخوانه، ليكون واحدا من الفرسان المستعرضين، فلن يذهب سمو الأمير وحده، بل لا بد أن تكون معه فرقة أو أكثر؛ من الفرسان؛ ترافقه، وهذه الفرقة، ستحتاج إلى معسكر أو معسكرات، سنشجع أن تكون في (قرطبة) أو على أبوابها، ثم أن هذه المعسكرات ستحتاج إلى خدم يخدمون المعسكر والفرسان، وإلى متعهدين لأرزاق من في المعسكر من فرسان وخدم، والعطالة قاسية في (قرطبة)، فسنستقطب الناس للعمل في خدمة تلك المعسكرات

وتوفير الأرزاق لها، وهم –في الحقيقة– يخدموننا، وربما سيتعاطفون معنا إذ نوفر لهم العمل، وهم عاطلون عنه، فإذا ما صورنا للناس أننا نريد أن ترك البلاد أو أراد الفقراء إجبارنا على الخروج من البلاد؛ كان هناك منهم؛ من يقف لهم بالمرصاد، ويمنعهم مما يريدونه، فليحلموا به إن أرادوا أن يحلموا)؛ (فكيف سيقتنعون بدخول الأمير المحاط بتلك القوة من الفرسان؟!.

ومن الذي يضمن أن واحدة من الأميرات ستميل إلى الأمير الذي نرسله؟!)؛ (أما أن هناك من ستميل إلى الأمير الذي نرسله، فهناك من ستميل، لأن بنات الأمراء أقرب ما يكُنَّ من أبناء الملوك، فهم أكثر منهن ثراءً، وأعلى نسبا، وهناك من تتوق إلى حمال عدا عن ابن ملك، فإن لم يمكن ذلك كله – وهو ممكن– كان لعيوننا وأيدينا التي في القصر أن تفعل ما نريد، وأما أن يذهب سمو الأمير؛ تحرسه قوة مناسبة، فهذا أمر طبيعي، أيذهب سمو الأمير إلى (قرطبة) وحيدا فريدا؛ تتصدى له ذؤبان الصحراء ولصوصها؟!)؛ (هذا غير ممكن)؛ (فإذا ما علقت إحدى الأميرات بأميرنا الذي جلب معه قوة عسكرية تحميه؛ بنى للأميرة ولنفسه قصرا في (قرطبة)؛ يسكنانه إذا زارا (قرطبة) وأميرها، فيكون ذلك القصر بسمار جحا الذي يثبت تلك القوة لحمايته، فليس معقولا أن تحمي قوات (قرطبة) قصر أمير غير قرطبي؛ هذه مسائل دبلوماسية يمكن الحديث عنها وتثبيتها ثم الاستفادة منها متى ما أحبت المملكة أن تستفيد؛ من قوة عسكرية أو من قوة غير ظاهرة؛ من أبنائها أو من أبناء (قرطبة))؛ (هذا تدبير جميل).

الحـــــــيرة

الأمير؛ لم يجد حلاّ في هذه المدلهمّة الظلماء؛ غير أن يُشرك معلمته الأولى؛ التي علّمته الخط، وشيئا من القرآن الكريم، وبعضا من الحديث النبوي الشريف، وما تيسر من أشعار أهل المشرق والأندلس؛ صحيح أنها كانت – وما تزال– قاسية عليه بعض الشيء، بل كثيرا، لكنها القشّة الوحيدة التي يستطيع أن يتمسك بها في هذا الخضم المتلاطم؛ صحيح أنها ستنتقد سياسته، وصحيح أنها ستنتقد تصرفاته، وصحيح أنه سينزعج منها، فهي مثقفة، وهو يكره المثقفين، لكنها لن تكون القشة التي تقصم ظهر جمله الذي ينوء بالمتاعب، فهي الوحيدة التي يثق بأمانتها في هذا القصر الجميل المظهر؛ القبيح المخبر، (لماذا يكرهنا المثقفون، ولا يُحيط بنا غير المتزلّفين؟!.

حين أطرح عليها أسئلتي، لن تسألني عن رأيي لتسوّقه لي أو لتسوّغه عندي –كما يفعل المتزلفون– لكنها ستسألني عما لا تعلم، لكي يكون رأيها أكثر سدادا، لماذا نعرف للمثقفين حقهم ثم يكونون أول المبعدين عنا)؟!

وصفّق الأمير بيده، وحضر قهرمانه الخاص، (أخبر كبيرة المعلمات أني حاضر لها عمّا قريب)؛ (حاضر)، وما أن ينصرف القهرمان، حتى تسأل الأميرة عن سبب زيارة سموّ الأمير لهذه الحية الرقطاء التي لا تدري لماذا يُبقي عليها حتى الآن، ولا يُحبّ الأمير أن يُناقش هذه المسألة، فيُقرر وهو يتحضّر للخروج:– (الأمير لا يُسأل عن سبب لقائه مع أحد من رعاياه، سواء زاره هذا الفرد من أفراد الرعية أم زاره الأمير)، وكان الأمير قد تهيّأ للخروج،

وصفّق بيده، فحضر بعض مرافقيه الخافرين على باب جناحه، وأحاطوا به كما يقتضي أمن كبار المسؤولين، وانطلق إلى جناح مربيته.

ما أن وصلها خبر رغبة الأمير في زيارتها حتى تهيأت بسرعة، وفتحت باب الجناح، كأنه مغلق، ووقفت خلف الباب؛ تنتظر ابنها العاق الحبيب، كان شعرها الثلجي القصير يتدلى على كتفيها وخلفها؛ يحيط بوجهها الأسمر الرقيق؛ نادر التجاعيد لكن نافرها؛ أنفها الدقيق؛ يّذَكِّر بجمال غامر غابر؛ يملأ وجهها الرقيق المنتصب على جسم رشيق؛ لم يترهل مع مر السنين، عيناها السوداوان؛ يشبههما ليل دامس الظلام؛ تضفيان عليها هيبة ورزانة، بعد لحيظات؛ سمعَتْ أصوات أقدام مرافقي الأمير؛ تقترب من الباب؛ فتحت الباب قليلاً، رأت الأمير؛ أشار لها بيده؛ أكملت فتح الباب؛ انصرف المرافقون؛ دخل الأمير؛ أغلقت الباب، أرادت إجلاسه في صدر المجلس لأنه الأمير؛ تخلى لها عن هذا المكان، فهي مربيته؛ جلس على الكرسي الذي يقع على يمينها؛ لم يكن الجناح ولا أثاثه؛ على درجة عالية من الأناقة؛ تليق بقصر أمير، كما أن المخطوطات؛ كانت تملأ المكان بشكل غير منظم؛ اعتاده الأمير يوم كان يزور هذا المكان للدراسة، واعتاده المثقفون الذين يَدْعُون إلى النظام، لكنهم ينثرون كتبهم حيث ما كان، ولا يعرف أماكن كتبهم ودفاترهم إلا هم؛ كل شيء كما كان؛ أقصى ما هناك أن ضجيج الجواري وضحكات أبناء عائلة الأمير؛ قد اختفت:- (أين هم)؟!.

أين جواريك وأطفالنا؟!؛ (أما الأطفال، فليس هذا وقت دراستهم؛ أنت تعلم أني كنت أدرسكم بين الصباح والظهر حيث أكون وتكونون على أعلى

درجات النشاط والتيقظ، وما يزال هذا دأبي لم يتغير، فالصواب يتطور، ولا يتغير، أما بناتي من المعلمات اللواتي تسمونهن بالجواري، فقد صرفتهن؛ كلاً إلى مكانها؛ خوفا من أن يكون لك ما تقوله لي وما أرد به عليك مما لا أحب أن تسمعه البنات، وإذا أردت إحضار إحداهن أو مجموعة منهن، فلسْنَ بعيدات؛ يمكن أن يكن قريبات منا في لحظات)؛ (أغرب ما فيك أنك لا تعبثين، فأنت تعرفين لماذا تعملين أي عمل)؛ (وأي عاقل هذا الذي يعمل عملا لا يستطيع أن يذكر له سببا؟!)؛ (أنتم المثقفون؛ تتكلمون عن العقل وكأنه يقابل الله، لا تفعلون شيئا إلا إذا نسبتموه للعقل، ولا تتركون شيئا إلا إذا كان له سبب عقلي)؛ (يا ولدي أستغفر الله -سبحانه وتعالى- أن نجعله في مقابل شيء، فكل شيء من صنع الله -سبحانه وتعالى- والعقل واحد من صنائع الله تعالى؛ خلقه لنا وأمرنا أن نستفيد منه، فهل لنا أن نتركه لقول قائل أو زعم زاعم؟!)؛ (أليس الله -سبحانه وتعالى- قد منحنا الدين، لنستغني به عن العقل؟!)؛ (وهل عرفنا الدين أو قبلناه بغير العقل؟!.

لو لم تكن لدينا عقول، لما قبلنا دينا معينا، فهناك أكثر من دين، وإنما اجتهدت -في كل دين- عقول علمائه، فتشكلت المذاهب المتعددة في الدين الواحد؛ صحيح أن أهل المصالح والجاهلين؛ أنكروا على غيرهم أن يكونوا على غير مذاهبهم أو في غير أديانهم، أما الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فقد تركنا لعقولنا، وقرر أن يفصل بيننا يوم القيامة، فهناك يبين الرأي الصحيح، أما الآن فاستمع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ

﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الحج: ١٧، وحتى يفصل الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– بين الناس؛ اسمع قول الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ البقرة: ٦٢ ، فمهمة عقولنا أن توجهنا إلى المذهب الصحيح من الدين الصحيح –في حدود ما نعلم– فإذا حدث هذا –بلا كره ولا إكراه– وعملنا عملا صالحا، فأملنا كبير بالله الذي يعلل اختلافنا بضرورة تعارفنا حين يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات: ١٣؛ هنا تحفّز الأمير فرحا، وكأنه اكتشف كنزا:– (الآن، وجدنا ما نتفقّ عليه)؛ (الحمد لله على أننا وجدنا ما نتفق عليه، ولكن ما هذا الذي نتفق عليه؟!)؛ (أظن أن هذا الذي نتفق عليه؛ هو التعارف، وهو مما لا يمكنكِ التنصّل منه، ولعله من المسائل القليلة التي ستفرحك، فصحيح أنك كثيرة التفاؤل، لكنك قليلة الفرح)؛ (فرّح الله قلبك يا ولدي، لعلي أفرح بشيء تفعله قرب آخر حياتي، فبشّرني بما تحبُّ مما يُفرحني)؛ (ربما جاء لـ(سعدى) مَن يخطبها، وهو يوازيها شرفا، ولولا أننا أمراء (قرطبة) العظيمة، لقلْتُ أنه يفوقها شرفا ومالا)؛ (بارك الله في ما أعطى، وفي ما يُعطي، فمَن هذا الخاطب الذي يوازيها شرفا؟!)؛ (هو ابن ملك مملكة الشمال)، (وكيف علمْتَ أنها راضية به؟!.

➢ **هذه واحدة، والأخرى، هل بين أخلاقهما ما ينسجم؟!.**

فإن اختلافهما في الأخلاق؛ قد يودي بعلاقتهما، و(قرطبة) الحبيبة؛ في غير حاجة إلى مشكلات؛ هل فكّر ولدي في هذه القضية؟!)؛ (أما المرحلة الأولى، فهي مرحلة التعارف بينهما، وقد أبلغتني عيوني -في المملكة- ما يُرضي من أخلاقه، فلو حضر إلى الإمارة في زيارة، فسيُتيح لهما ذلك اللقاء، ومن ثمة التعارف، وإبداء الرأي في بعضهما البعض، ولو لم ينفع (سعدى)، فـ(حمدة) موجودة؛ المهم أن نتعرّف على الرجل، وأن نظمن مملكة الشمال، فأعداؤنا كثر، والمخاطر بلا حصر، فمَن ألقت إليه ما في يدها من الأميرات أثناء استعراض الفرسان، فستكون له، وهو راضٍ بهذا كما فهمْت)؛ (إذن فقد اتّخذْتَ القرار، واتّفقْتَ على كل شيء، أفجئْتَ لتخبرني أم جئْتَ لتستشيرني؟!.

فإن جئْتَ لتُخبرني، فليس لي أن أقول أكثر من:- (مبروك) وإن جئْتَ لتستشيرني، ففيمَ تستشيرني، وقد اتّخذْتَ كل ما هو مطلوب؟!)؛ (أما أني جئْتُ لأخبرك، فلا أظنُّ هذا، فليس لأحد على أمير (قرطبة) العظيمة سلطان، ثم أن الخبر سيتسرّب لك إن لم يكن قد تسرّب إليك فعلا، وأما أني جئْتُ لأستشيرك، فقد جئْتُ لهذا فعلا، فأنا -وعلى الرغم من اختلافك معي على طول الخط تقريبا- لا أجد في حاشيتي وأهلي مَن أثق به مثلك؛ ناهيكِ عن أن أثق به أكثر منك، ولا أدري لماذا أثق بك كل هذه الثقة، كما لا أدري لماذا لا تخادعينني مثل غيرك، فتكذبين عليّ، وتنالين مني ما تريدين؟!)؛ (يا بنيّ؛ الرائد لا يكذب أهله، والمستشار مؤتمَن، فماذا أقول لربي أو لضميري إذا ما خدعْتُ ولدي

الذي أحببْتُه وإن لم ألده، لقد حرمني أبوك -يرحمه الله تعالى- من الحق الذي تطلبه كل أنثى حين قرر ألا أتزوّج، وألا يتسرّى بي أحد؛ مع أنني من الجواري، لقد صرخت أعضاء جسدي صرخات -كثيرا ما أيقظتني من نوم عميق أو سهدت منامي- وما كان لي أن أوقفها، وقلبي؛ كثيرا ما كان يريد القفز من صدري؛ في الوقت نفسه؛ ما كان لي أن أخالف سيدي، فقد صدرت أوامره التي لعله نسيها، أما أنا، فما أزال أعانيها)؛ (أنا لا أشك في طهارة ثوبك ونقاء سريرتك؛ مع أن أبي منعك الزواج، كما لم يُتِحْ لأحد التسرّي بك، وقد أحسسْتِ صعوبة هذا في قصر يملؤه الغزل، وعدم الخجل، ومع ذلك بقيْتِ على ما أنتِ عليه، ويقولون أن بعض جواري القصر يخرُجْنَ عن الطريق، ففيمَ لا يقتديْنَ بمثلك؟!)، (أما أنا، فقد ربّتني أم حريصة على تربية ابنتها تربية عالية، ولم أتنقّل طويلا بين البلدان -في أسواق النخاسين- بين أيدي النخاسين، وفي خاناتهم، فقد حماني الله -سبحانه وتعالى- من تطلّع أهل الضلال، فلما دخلْتُ هذا القصر؛ كنْتُ محسوبة على والدتك التي تركتني بين يدي أستاذتي التي ربتني على ما ينبغي، وعلّمتني أصول التربية الصحيحة، فصيّرتْني من بناتها، وحرصت عليَّ الحرص كله، فلما أمرني أبوك بما أمرني به؛ تجملت بالصبر وتحمّلتُ ما لا تتحمّله كل امرأة، لكنها لو تحمّلتْه وتألّمتْ لم تمُتْ، فهل تتصوّر ذلك؟!.

هنا أتساءل:- ماذا تُريد من جارية تعيش في المقاصف بين طلاب المتعة الحرام ممَن يجيدون الغزل، واللهو بالنساء أو معهن، وهُنَّ لا يجدْنَ غيرهم أملا

تصمت معه أناشيد الشهوة أو عواصف الحرمان والعواطف؛ أنا لا أقول أنهن جميعا صابئات، لكنني أسألك:- كم تستطيع المرأة العادية أن تصمد أمام عُرام الرغبة، وصراخ الشهوة بلا أمل مع الحاجة الماسة والممكنة؟!.

إن المشكلة ليست مشكلة الجواري وحدهن، إنها مشكلة عوانس الحرائر أيضا، فإذا تحمّلت واحدة أو اثنتان أو عشرة، فهل يتحمّل الألف والألفان؟!.

حتى الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- لا يكلّف نفسا إلا وسعها، فهل فكّر أحد في هذا؟!.

- **هل فكّر أحد في إيجاد عمل للشباب كي يتحصّنوا من غواية الشيطان بالزواج؟!.**

إنني أستغرب مَن يتحدّث باسم الدين، ثم لا يُخالف الدين أحد قبله)، (لهذا يرفضكم المتشرّعة، إنكم لا تفضحون فحسب، لكنكم تكشفون العورات)، (فلْيتغطَوا من الله، ولا خوف عليهم منا لو كانوا صادقين، إنهم يرون الدين مهنة؛ يعيشون منها وعليها، أما نحن، فنرى الدين محنة؛ نعيش من أجلها.

أشعر أني لسْتُ مثل النساء؛ يحقّ لي أن أُحبّ، كما يمكن أن يحبني أحد، ليس لي ولد ولا بنت؛ أستند له أو لها إذا ما عجزْتُ عن الحركة، ومع ذلك، فقد رأيتكم أولادي؛ صحيح أنكم كثيرا ما تخالفونني، وأشعر أنكم تتضايقون مني، لكني -على كل حال- أعدُّكم أبنائي، فهل تكذب الأم أبناءها وبناتها؟!

وكيف أكذبكم، وقد أخذت عليَّ أستاذتي -يرحمها الله تعالى- أن أكون أمينة على كل متعلم وأن أصدق أي مستشير، وهو ما آخذه على بناتي ممن

أدربهن على التعليم، فكيف أخدعكم؟!)؛ (نحن نعرف هذا، لذلك نثق بك، وأن قد نخالف رأيك، وإن بدا لي أني ما خالفْتُ رأيك إلا كنْتُ على خطأ؛ ترى أأنتِ نبية لا تخطئين؟!)؛ (أستغفر الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- من أن أكون نبية، والعصمة -في مذهبنا- لا تكون إلا لنبي، أي أنها ليست لامرأة، فلا نبية من النساء، وإن كان مَن يرى أن سيدتنا (الزهراء بنت محمد) (ع) معصومة، وأيا كان الأمر، فأنا امرأة عادية غير معصومة؛ أقصى ما هناك أنني لا ألقي القول على عواهنه، بل أفكّر فيه وأبحث، وأشغّل عقلي على عادة المثقفين العلماء، فيخرج رأيي أقرب إلى الصواب، وهو ما أقوله لكم، وأعمل به، فتظنون بيَ العصمة، وأستغفر الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- أن أقول عليه الكذب، فأنا إنسانة عادية؛ أحبّ الناس؛ هكذا علمونا، فنحن لا نكذب عليهم؛ نشغّل عقولنا معهم أو من أجلهم، لا نحكّم مصالحنا في ما نقول، فالحق أحقّ أن يُتّبع)، (وهذا دأب المثقفين)؛ (هذا ما قُلْتَه أنت، ولم أرغب في أن أذكّرك به)، فأين مثقفونا؟!.

لماذا لا يكونون مثلكم؟!؛ قد يكونون مثلنا، وقد يكونون أفضل منا، وقد يمتلكون عقولا جبارة لا نمتلكها، لكنهم لا يملكون أمانتنا، لذلك تشغلونهم، فيقبلون منكم كل ما تقولون، ويسوّغون لكم كل ما تفعلون، فيوحون لكم أنكم على الحق، حتى إذا جاء الطوفان؛ تركوكم وفروا مثل فئران السفينة؛ ماذا تقول لأمير يعين الأصمَّ له نديما؟!.

ويجعل الأعمى له كاتبا؟!، (ويجعل -مثلي- مَن لا يعرف الكتابة؛ رئيسا لكتّابه؛ إرضاءً لامرأة، فهو أحمق أيا كان، وأيا كانت المرأة التي يُريد أن يُرضيها)؛ (أنا -يا ولدي- لم أقُلْ شيئا؛ أنت الذي قُلْت، وليس الرجل وحده

مَن يُرضي المرأة، لكن ينبغي للمرأة -كذلك- أن تعرف حاجات الرجل، لترضيها، فحين تبني رضاها على خطأ، فماذا يمكن أن يقال عنها؟!.

وكيف يمكن أن تكون؟!.

وهذا الأصمُّ الذي رضي أن يكون نديما للأمير، وذلك الأعمى الذي رضيَ أن يكون كاتبا للأمير، والآخر الذي وافق على أن يرأس كتّاب الأمير دون أن يعرف الكتابة؛ أتمكن الثقة بواحد منهم؟!.

- وإذا حلّت أزمة ما، فهل يعرفون ما ينصحون به الأمير؟!.
- نعم قد يعرفون ما ينصحون به الأمير، فهل يفعلون؟!.

لو كان الأصم فاعلا، لاعتذر للأمير بأنه أصم، ولو كان الأعمى فاعلا، لاعتذر بعماه، فماذا نتوقع من الجاهل الذي يصبح رئيسا لكتاب الأمير؟!.

إن الأمير الذي لا يختبر أصحابه، ولا يضع الواحد منهم حيث ينبغي أن يكون بحيث يضع الشخص المناسب؛ في المكان المناسب...)؛ لماذا صمتّ؟!.

إن الأمير الذي يفعل بنفسه مثل هذا؛ يستحقّ ما يجري له، ونحن ننال جزاءنا على أفعالنا، إن لم يكن بنا، فبأبنائنا أو أحفادنا، لكننا لا نتّعض، فإذا عرفْتَ هذا كله، فماذا تريد مني أن أقول؟!.

➢ ولماذا لا تفعل ما ينبغي فعله لأمير حازم؟!

ومع ذلك، فهذا كلام يطول، وأنا أعرف أن وقت الأمراء قصير، فحدّثْني بما حزبك، ودفعك إلى زيارتي؟!؛ (الحق أقول لك: أنني أحسست باختناق، كما أنني أحسسْتُ أني محتاج لتقريع مَن لا أستطيع أن أرد تقريعه واستشارة من أثق

بمشورته، وإن لم استطع أن أحققها، فمن الغريب أن يعترض شيخ البيازين على زواجي، وأن أرفض اعتراضه، وأن يفرق بين الفقراء والمتسولين ثم يبدو أنه أصوب مني رأيا؛ ترى لماذا يكون كل الناس؛ أصوب من أميرهم رأيا؟!)؛ (قد لا أستطيع أن أوضح لك هذا الأمر؛ في هذا الوقت، لكن ما الذي أبدى لك أن رأيه في زواجك؛ كان أصوب من رأيك)؟!؛ (في حينه –يوم جمعت مجلس الشعب واجتمعت بهم- تخوف على أبنائي من الأميرة، وتساءل عن نوعية تربيتهم، وعن الذي سيربيهم، ثم استغرب شرط أكل الأميرة منفردة، فلما اطلعْتُ على سبب أكلها منفردة، فهمت سبب هذا الأكل، وتخوف شيخ البيازين على أبنائها منها، فقد كانت تأكل منفردة، لأنها توزع الطعام والخبز على أنحاء الغرفة المغلقة التي هي فيها ثم تعود لتستجديها، فإذا اجتمعت، راحت تأكل، وهذا خلاف المعتاد بين الناس الطبيعيين، عدا عن الأمراء وأبنائهم، فلماذا توقع شيخ البيازين هذا، ولم ألتفت إليه؟!.

وما هي المشكلات التي يمكن أن أعانيها لو تزوجت (سعدى) من ابن ملك مملكة الشمال، و(حمدة) من ابن ملك مملكة الجنوب؟!.

أهذا مما يحمي إمارتي أم يحملها على الدمار؛ (أما شيخ البيازين فقد تنبه وتوقع، وكان توقعه صوابا، لأنه عاقل؛ يفكر بعقله لا بعاطفته ولا بمصالح المتزلفين، وأما إمارتك فقد تحييها إحدى هاتين الزيجتين أو كلتاهما، وقد تدمرها بحسب الشروط المعلنة والأفكار الخفية، فليس من أمير يتزوج أية أميرة ترضى به إلا إذا كان يريد شيئا أهم من الزواج، وأكبر من الأميرة، فما

شروط الرجلين أو شروط كل منهما)؟!؛ (أما ملك مملكة الشمال، فلا شروط له غير أن تأتي فرقة عسكرية تحمي الأمير؛ فترة بقائه في (قرطبة) العظيمة، ويكون بين الفرسان المستعرضين أمام الأميرات، وأما ابن ملك مملكة الجنوب، فيحب أن تصحبه مجموعة من سفن المملكة؛ تدخل الوادي الكبير، وتستعرض فيه؛ معلنة الأفراح والليالي الملاح، وأنا أشعر أن في هاتين الزيجتين ما ينفع (قرطبة) العظيمة، إذ سنستطيع أن نصادق المملكتين اللتين بيننا وبينهما مشاكل حدودية ومسائل مالية وما إلى ذلك، فإذا ما تحركت إحداهما ضدنا، واجهناها بالأخرى، فيوجد توازن خوف بين المملكتين ثم أن لنا في هاتين المملكتين؛ قوة توازن قوة المتسولين المتسللين إلى السلطة، ممن طغوا فيها وعاثوا، فماذا تقولين)؟؛ (يهمني أن أعرف ما إذا كانت هذه الأفكار؛ أفكارك أم هي مما أوحي به إليك، وإذا كانت مما أوحي به إليك، فمن الذي أوحى لك بها؟!)، (أما أنها أفكاري، فهي أفكاري بغض النظر عما إذا نبعت من رأسي أو أوحى إليَّ بها؛ من أوحى)، لا –يا ولدي– ليس كذلك، فإذا كانت الأفكار من أفكارك، كان لها معنى، وإذا كانت من أفكار غيرك، وقد أوحى بها إليك، فلعلها تصبح أفكارك التي تقبل بها، لكن ينبغي أن تفهم مراد الموحي بها؛ منها، وأيا كان الأمر، فكيف تقبل أن تدخل أرضك أو مياهك قوة أجنبية تحمي أيا كان؟!.

– أليس لديك من القوة والبأس، ما تحميه به؟!.

– ماذا يريد الملوك والأمراء أكثر من أن تدخل قواتهم أراضي الغير ومياههم، فتستعرض فيها بلا قتال؟!.

- ألا تحتاج هذه القوات إلى معسكرات على الأرض؛ تعسكر بها؟!.
- وهذه المعسكرات ألا تحتاج من يجلب لها الأرزاق والمياه وفي بلادك عطالة؟!.
- كيف ستفعل إذا تكونت مع هذه القوات؛ مصالح لا يمكنك أن تقطعها؟!.
- من أين ستوفر العمل للعاملين معها إذا خرجت أو أردت أمرها بالخروج؟!.
- وماذا ستفعل إذا اجتمعت قوتا المملكتين عليك؛ متعاونتين مع المتسولين المتسللين إلى دواوينك؟!.

وهذا ملك (الروم)؛ يعد لك الإعدادات؛ في السر والعلن، أترى حصانا خشبيا أسوء من هذا؛ يدخل (قرطبة) الحبيبة؟!؛ أعلم أنك تشبِّهين دخول هاتين القوتين إلى (قرطبة)، بالحصان الخشبي الذي دخل (طروادة)، وأعلم أنك محقة في كل ما سألت عنه، ولكن ماذا أفعل؟!.

لقد وقع الفأس في الرأس، وتسلل المتسولون، وقوي الجواسيس، وتنفذ أعداء الإمارة، فما العمل؟!؛ (يا بني؛ حينما يمرض الشخص، نذهب به إلى الطبيب، فإذا ما اشتد مرضه، جاء الطبيب إليه، فماذا نفعل إذا مات هذا الشخص غير أن ندفنه؟!)؛ (إذن فأنت ترين أن (قرطبة) العظيمة ماتت، وأن علينا أن نشهد دفنها، فإكرام الميت؛ في دفنه)؛ (لا –يا ولدي– ليس الأمر كما تقول؛ (قرطبة) الحبيبة مريضة؛ هذا صحيح، وهي شديدة المرض؛ محتاجة إلى طبيب نطاسي يحضر إليها فيعالجها؛ هذا صحيح أيضا، وبأيديكم قتلها إن

شئتم، وإنقاذها إن أردتم، فأما قتلها، فبهذا الأسلوب الموحى به إليك، وإذا كنت مضطرا للقبول به، ولا حل لديك سواه، فوازنه بمن يملكون من العقل ما يكفي، ويحبون (قرطبة) الحبيبة حبا واقعيا واعيا؛ يبذلون من أجلها الغالي والنفيس دون أن يطلبوا منها غير أقل القليل، إنك إن فعلت ذلك، وازنت قوة المتسولين الظالمين المتغلبين، وزرعت شوكة في عيون أعداء (قرطبة) الحبيبة من الأجانب الطامعين، ولا تضننَّ أن أحدا يحمي بلادك؛ أكثر من أبناء شعبها المحبين لك ولها، والذين لا يطلبون إلا أقل القليل)، (لعلكِ تريدين مني أن أمنح ثقتي للفقراء وقادتهم البيازين؟!)، وما يمنعك من ذلك؟!.

- أليسوا من أبناء شعبك المخلصين؟!.
- هل رأيت منهم مطالبة بما لا يستحقون؟!.
- ألم يقبلوا بالقليل ويسكتوا على الظلم الواقع عليهم راغمين؟!.

إنك تستعرض الفرسان، وعندك من الأميرات من تستحق الزواج غير (سعدى) و(حمدة)، فلو أوقفتهن مع الأميرات ثم كان مع الفرسان المستعرضين؛ جماعة من شباب الفرسان الفقراء والبيازين، فرمت بعض الأميرات؛ لهم ما في أيديهن من ورود وتفاح ومناديل، لأفرح ذلك الفقراء والبيازين، وزاد من اندفاعهم في حب (قرطبة) الحبيبة، وحب أميرها الواعي للظروف؛ الداعي إلى التعاون مع الجميع)، (وهذا من أصعب الأمور، فما أحتمل للفقراء والبيازين رأيا ولا قولا ولا موقفا، وإن كنت أثق بهم يوم الدفاع عن (قرطبة) العظيمة، فما دافع عنها إلا هم، لكن لم يدافعوا عن أمير)، وهل وجدوا أميرا يحبهم ويحبوهم بالعطف ثم لم يدافعوا عنه؟!.

مع ذلك، فما في رأسك؛ في رأسك، ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر، لكن إذا ما فكرت وتدبرت، فهناك من تستطيع أن تضيفهم إلى الفقراء والبيازين، إذا دعوتهم وأكرمتهم، لتوازن بهم المتسولين الطغاة والظالمين البغاة)، (ومن هؤلاء؟!)؛ ((قرطبة) الحبيبة –يا ولدي- والأندلس؛ طالما تقيء أبناءها العظماء، أفلا تذكر (ابن هانئ الأندلسي) الذي طردوه بحجة واهية؟!.

و(ابن مسرة)؛ ألم يطاردوه وأتباعه ويطردوه ثم يحرقوا كتبه؟!.

و(الحكم الربضي)؛ ألم يقاتل أهل ربض (قرطبة) ثم يحرقه ويطرد من بقي من أبناءه، فيذهبون إلى (الإسكندرية) وإلى (جزائر البحر)، فيغنون ويغتنون وينشرون دين (محمد)؟!.

فمن لم يُطرَد من (قرطبة) ولم يفرَّ منها، اغترب فيها وفي سائر أصقاع الأندلس، ومثال ذلك؛ (علي ابن أحمد ابن حزم) الذي يقول:

(سموت بنفسي لا بمجد هوت به من الزمن الغدار آلاته الحدب
وأن شئت أخبار الدهور فإنني أنا جامع التاريخ مذ نبت الهضب
يسافر علمي حيث سافرت ظاعناً ويصحبني حيث استقلت بي النجب
أنا الشمس في جو العلوم منيرةٌ ولكن عيبي إن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ لجدَ على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابةٌ ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للعبد قصة وإن كساد العلم آفته القرب
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا له ودنوّ المرء من دارهم ذنب

وإن مكاناً ضاق عني لضيقٌ على أنه فيحٌ مهامهه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيعٌ وإن زماناً لم أنل خصبه جدب)

(أما (ابن هانئ) و(ابن مسرة)، فقد مضى زمانهما، وليس إلى إرجاعه من سبيل، وأما أبناء الذين طردهم (الحكم الربضي) من الربض، وأحفادهم، فالكثير منهم نسي الأندلس عامة، و(قرطبة) خاصة، وأما الذين ما يزالون يذكرونها فقلما يحلمون بالعودة وقد حاولت إغراءهم بالرجوع، فرجع بعضهم ثم عاد إلى المغادرة، وأحدهم استدعى مندوبنا إلى بيته، فكان بيت علم فاره، وكانت الدنيا قد انفتحت بين يديه، فلم تكن مغرياتنا تثيره، وبعد أن حدث مندوبنا بما عنده وسخر بما عند مندوبنا سأله: (أما يزال في (قرطبة) ذباب؟!)، وكان يشير بيديه؛ ترى أأستطيع أن أخلص (قرطبة) من الذباب وقصري يملؤه الذباب؟!)؛ (لا شك أنه لم يغب عن وعيك أن الرجل لم يقصد الذباب الحقيقي، لكنه تسائل عن ذباب المتزلفين والمنافقين والوصوليين المتزايدين في (قرطبة) من المتهافتين على قصور أميرها، وأما الذين عادوا إلى (قرطبة) ثم هجروها، فما هجروها بغضا لها ولا حقدا عليها، لكن هجروها لأنهم وجدوا أنفسهم حيث لا ينبغي أن يكونوا، لقد وجد كل منهم نفسه في المكان غير المناسب، فكان خبير الزراعة؛ يعمل في المدينة أو يعمل في صناعة لا علاقة لها بالزراعة ولتكن تعدين النحاس، فرأوا أن يعودوا من حيث جاءوا، ليعملوا ما ينبغي أن يعملوه فـ(قل اعملوا فكل ميسر لما خلق له)؛ هذا هو رأي رسول الله (ﷺ)، فما يفعلون بمخالفته؟!)؛ (هذا شأن أهل الربض، أما (ابن حزم)، فلعل مشكلته أكبر وأخطر، لقد انتقل من مذهب أهلنا إلى المذهب الظاهري،

وهو يعلن بوضوح، أنه مع الأمويين؛ يحبهم، ويميل إليهم، وللأمويين –في هذا الزمان– خصوم وأعداء فمالي وللرجل الذي يقرر أنه إذا أحب تمسك بمن أحب، وقد أحب الأمويين، وانتهى أمره، فمالي وله؟!)؛ (أما أنه انتقل من المذهب المالكي؛ إلى المذهب الظاهري، فليس هكذا فقد انتقل من المذهب المالكي؛ إلى المذهب الشافعي حيث خالف (ابن داود الظاهري) –مؤلف كتاب الزهرة– في موضوعة الحب ضمن كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف) وقد انتبه (ابن شهيد) إلى شافعية (ابن حزم) ونبه إليها بقوله:–

رُوَيْدَكِ حتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غَيابةُ هَذا العارِضِ المُتَناثِرِ
ودُونَ اعْتِزامِي هَضْبةٌ كِسْرَويّةٌ مِن الحَزْمِ سَلْمانِيّةٌ في المكاسِرِ
إذا نَحْنُ أَسنَدْنا إِلَيْها تَبَلَّجَتْ مَوارِدُنا عن نَيِّراتِ المَصادِرِ
وأَنْتَ ابْنَ حَزْمٍ مُنْعِشٌ مِن عِثَارِها إذا ما شَرِقْنا بالجُدُودِ العَوائِرِ
وما جَرَّ أَذْيالَ الغِنى نَحْوَ بَيْتِهِ كأَزْوَعَ مُعْرَوْرٍ ظُهُورَ الجَرائِرِ
إذا ما تَبَغَّى نَضْرةَ العَيْشِ كَرَّها لَدَى مَشْرَعٍ للمَوْتِ لمحة ناظِرِ
فَسَلَّ مِن التَّأْوِيلِ فيها مُهَنَّداً أَخُو شافِعِيّات كَرِيمُ العَناصِرِ
لِمُعْتَزِلِيِّ الرَّأْيِ ناءٍ عن الهُدَى بَعِيدِ المرامِي مُسْتَمِيتِ البَصَائِرِ
يُطالِبُ بالهِنْدِيِّ في كُلِّ فَتْكَةٍ ظُهُورَ المَذاكِي عن ظُهورِ المَنابِرِ

وصحيح أن (ابن حزم) يزعم في (طوق الحمامة) أنه يحب الأمويين ويتمسك بالقديم، لكنه في الكتاب نفسه؛ يقرر أنه تكاره مع رجل قبل أن يراه، فلما رآه تحابا.

ثم ما لبث أن انتقل من الشافعية إلى الظاهرية؛ يريد أن يقول أنه مستعد للتغير إذا وجد من يشغله، وهو رجل ذو عقل، فمالك لا تستفيد من عقله مشاورا، إذا لم تستفد منه فقيها أو كاتبا أو شاعرا وهو يصلح لكل ذلك؟!؛ (هذا رجل مغضوب عليه من الفقهاء؛ محروقة كتبه في إشبيلية، فمالي أورط (قرطبة) العظيمة به أو بمن هو على شاكلته؟!.

لكن اقتراحك هذا يدعوني إلى أن اقترح عليك شيئا آخر هو أن تكوني كاتبة ديوان التعليم في (قرطبة) العظيمة، فليس هناك من هو أنسب منك لهذا المكان)؛ (يا ولدي الحبيب؛ قد مضى زمن الطمع؛ ناهيك عن زمن الطموح، ولو أنني أردت أن أوافقك على ما تقول، فهل بمقدوري أن أفعل بديوان التعليم في (قرطبة) الحبيبة ومدارسها ومساجدها؛ ما يجب أن أفعله؟!.

- أأستطيع أن أطالب الأدعياء بشهاداتهم، فإذا بدا تزوير إحداها أخرجْتُ صاحبها من عمله وأحلته على القضاء؟!.
- كم هم حملة الشهادات غير الحقيقية في ديوان التعليم بـ(قرطبة) الحبيبة ومدارسها ومساجدها؟!.
- وإذا أحيلوا على القضاء، فهل هناك قضاء مستقل لا سلطة للمتسولين والجواسيس والرشا عليه؟!.
- ماذا أفعل بالوصوليين والكذابين والمنافقين؟!.
- هل من سبيل إلى التحقيق معهم ومحاسبتهم بموجب الشرع والقانون؟!.

إذا ضمنت لي ذلك، وإذا ضمنت أن الأموال المخصصة لديوان التعليم؛ تصل إلى ديوان التعليم ومدارسه ومساجده موظفين ومعلمين وعلماء، كتبا

ومكتبات ومختبرات، ولا تتسرب إلى جيوب المتسولين والوصوليين، فيدي بيدك، وأنا معك؛ منذ هذه اللحظة في ديوان التعليم بـ(قرطبة) الحبيبة)؛ (يا أمي؛ أنت تشترطين المستحيل، فكيف يمكنني أن أحقق لك بعض هذه الشروط؛ ناهيك عنها جميعا؟!)، (فدعك من (ابن حزم) ومني، وتذكّرْ أن ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب: ٢٣، فعليك ببعضهم إن أردتَ نجاة (قرطبة) الحبيبة)؛ (هؤلاء مثقفون، وأنا لا أميل إليهم، كما أنهم لا يتعاونون معي)، (لو طلبْتَ إليهم ما لا يقدح في دينهم، فلن يعترضوا عليك، أرأيْتَ (أبا الأسود الدؤلي) -يوم طلب إليه الحجاج أن يُسهّل قراءة القرآن الكريم على الناس- أرأيْتَ أنه اعترض؟!.

فلسْتَ أسوأ من الحجاج عند المثقفين، ولا أحد منهم يرى نفسه خيرا من (أبي الأسود)، ففيمَ ينقط (أبو الأسود) وتلامذته القرآن الكريم بطلب من الحجاج، ولا يُحقق المثقفون لك ما ينفع الأمة؟!.

لكن إذا لم تطلب إليهم المساعدة، ولم تمكنهم من رقبة الفساد كي يساعدوك في القضاء عليه، فكيف يستطيع مثقف أن يخدم؛ في ظل ظروف قاسية بهذا المستوى الرهيب؟!.

لذلك نشير ولا نقبل الوظائف؛ نكتب ونحتمل الشتائم، ليثبت -في ما بعد، وربما بعد فوات الأوان- أننا على الحق، وفي كل الأحوال قلما يشير إلى صاحب الرأي الصائب؛ مشير؛ هذا هو الله، وهذه حكمته، فماذا نفعل؟!)؛ (قد رفعت -يا أماه- عن صدري هموما كثيرة، ووضعت على صدري هموما

أكثر، وأنا أعرف أنك على الحق أو أقرب ما تكونين من الحق، لكن كما لم تتمكني من مساعدتي، فلن أتمكن من أن أفعل ما تريدين، لقد خف الضيق عن صدري، فاسمحي لي بالانصراف)؛ (أما أنني في خدمتك وفي خدمة (قرطبة) الحبيبة، فهذا مما لا ريب فيه، وأما أن أخذلك إذا استشرتني أو طلبت إلي ما أستطيع، فهذا مما لا يكون، وأما أن أحبسك عن الانصراف، فهذا ليس من شأني، وإن كنت أتمنى أن تعود إلي، وتقيم بين يدي، كما كنت يوم كنت تلميذا نابها من تلاميذي، لكن قبل أن تقوم أحب أن أنبهك إلى شيء؛ هل انتبهت إلى أنك تصف (قرطبة) بالعظيمة؟!.

- وهل انتبهت إلى أنني أصفها بالحبيبة؟!.
- ما لنا نسينا (قرطبة) الجميلة؟!.
- أين بساتينها؟!.
- أين رياضها؟!.
- أين عشاقها؟!.
- أين قمر ليلها الزاهر؟!.
- أين آمال الناس؟!.
- لماذا يبذر اليأس في قلوب الناس وينتشر الياس في حدائق (قرطبة) الحبيبة وبساتينها التي كانت جميلة؟!.
- لماذا تمتلئ (قرطبة) بالأزبال؟!.
- لماذا تغير لون مياه الوادي الكبير؟!.

- لماذا شحت مياهه واتسعت الأراضي في أطرافه وانتشرت الجزر في وسطه؟!.
- ألا يمكنكم أن تعيدوا إلى (قرطبة) شيئا من جمالها؟!.
- (قرطبة) ليست عجوزا، فلماذا يشيع القبح فيها؟!.
- أليس الله جميلا يحب الجمال؟!.
- فلماذا يشيعون القبح باسم الله؟!.

هل تعلم أن القاضي الكريم، لا يكتفي برزق الأمير، ولا تشبعه الرشا التي يقبضها في ظلمة الليل أو في ظلمات الضمير، لكنه -مع ذلك- يشارك الفوّالين وعدّادي النجم؛ والعطارين مكاسبهم المحرمة؟!

- أتدري أنه يغسل أموال الغشاشين، بحجة الزكاة؟!.
- أتعرف أنه شريك -في السرّ- لباعة الخمر وبائعات الهوى؛ يحميهم، ويستفيد منهم؟!.
- أين عشاق (قرطبة) الحبيبة، وعاشقاتها؟!.

لماذا اختفَوا واختفَين، وبقيت بنات الهوى في الليل والنهار؛ يمارسْنَ الهوى والهوان؟!)، (ليس هذا معقولا؛ لم يصل الأمر إلى هذا الحد)، (فعندك أربعة آلاف جارية؛ جرِّدْ عشرا منهن منقّبات، وأرسلهن إليه كلٌّ بحجة، وليكتبْنَ لك تقارير عمّا تفعله معهنَّ مديرة مكتبه، ثم ما يفعله هو معهن، لتذهبْ إحداهنَّ بحجة أن زوجها يُفضل غيرها عليها، ولتقُلْ الثانية أن سيدها لا يصل إليها ولا يدعها لغيره، ولتقُل الثالثة أنها لا تحمل، والأخرى تقول أنها لا تلد، وتقول غيرهن أنها تلد البنات وتريد الصبيان، ولتزعُمْ كهلة أن بناتها

عنّسْنَ ولا يجدْنَ مَن يخطبهن، ولتقل غيرهن أن في أهلها مجنونا أو مجنونة تريد له أو لها الشفاء، وهكذا تقول كل واحدة ما تقوله النساء المحتاجات، وانظر بماذا يرجعْنَ إليك)؛ (هذا شيء لا يمكن، ولو أمكن، فهو مما لا يُصدَق)، (لكنه الواقع)، وتوشك دموع الأمير أن تطل من عينيه لتنسكب على خديه، والعبرة تقف في حلقومه، فيقوم ويخرج ولا يسلم إلا بيدٍ مرتعشة.

سوء الاعتبار

كان الأمير منفردا؛ يفكّر في ما آل إليه أمر البلاد والعباد: (ليس أمامي إلا واحد من أمرين، فأما أن التجئ إلى الفقراء -الذين يمثلهم (البيازون)- وأما أن أقبل فكرة استقبال سجناء المملكة، لمساعدتي على مقاومة لا المتسولين الذين سيطروا على كل شيء فحسب، لكن لأقاوم بهم المعتدين؛ من قوات ملك (الروم) المتلمظ لاحتلال (قرطبة) العظيمة، فكيف الحل؟!.

هل من العيب العودة إلى الصواب، ومصالحة شعبي الذي طالما وقف معي في السراء والضراء؟!.

شعبي الذي قد يحبني، وقد لا يحبني، لكنه -يوم الحاجة- اصطفَّ خلفي، ولم يسألني عما إذا كنت على خطأ أم كنت على صواب، لكن هل يتنازل أمير لرعيته؟!.

حين أنتصر على قوات ملك (الروم)، وأرغم أنفه في التراب؛ عند ذاك، سأتجه إلى شعبي، سأصالح رعيتي، ماذا تريد الرعية من أميرها غير شيء من السلم والأمن، وعمل ينعش الحياة؛ يتيح لهم أن يأكلوا ويتناسلوا فـ(يعيشوا في ثبات ونبات، ويخلفوا الصبيان والبنات)؟!.

سأعبر بهم إلى كل خير، لكن كما أنني عاجز الآن بفعل المتسولين، ألا تعجّزني قوة المتسللين من الشقاة والمتبطلين؟!.

لا لن تعجزني مثل هذه الجماعة التي سأحولها إلى قيادات عسكرية، فماذا تريد أكثر من أن تخرج من السجن، لتتبوأ أعلى المراكز العسكرية؟!.

سأوازنهم بجيش البلاد، وسأعتمد على أهل العلم والخبرة والاقتصاد، سيسود العدل والقانون، كما سينتصر الفرح والمرح والحياة السعيدة في البلاد، سأفتح المستشفيات، سأجعل (ابن زهر)؛ وشاحا خاصا لي، ومديرا لمستشفى (قرطبة)، سأعيد فتح المدارس، وسأحسن أحوال أساتذتها، سأجعل المثقفين؛ هم الذين أستشيرهم، ولا أخالف آراءهم، سأستمع لابن حزم، كما أستمع لابن طفيل وابن رشد، سأدعو محي الدين ابن عربي للعودة إلى (قرطبة)، ليختلف المثقفون، ماذا يضيرني؟!.

سأستمع إليهم جميعا، ثم أفعل ما تمليه عليَّ حاجة البلاد؛ المهم اليوم؛ أن أتخلص من مشكلة احتمال احتلال ملك (الروم) لهذه الإمارة العظيمة، ماذا يمنع من الاستعانة بشقاة مملكة الشمال وذعرانها وسجنائها؟!.

- ألم يستعن (سيف بن ذي يزن) بسجناء الفرس على طرد الأحباش من (اليمن)؟!.
- ألم يقيموا في اليمن؛ نظاما صالحا قَبِل الإسلام؛ بسرعة؛ قبل أن يقبله بعض العرب؟!.
- بل ألم يقتلوا (الأسود العنسي) الذي تمرد على رسول الله (ص) وارتد بجملة من قبائل (اليمن)؟!.
- كم هم الصعاليك الخارجون عن الشرع والقانون؛ الذين استقاموا يوم وجدوا لدى الدولة عملا؟!.
- ألم يكن (مالك بن الريب) واحدا منهم؟!.
- ثم أليست هناك وسائل لمصالحة شعبي غير التنازل للفقراء و(البيازين)؟!.

- أليس أغلب لصوص (قرطبة) وجناتها وغيرهم من المسجونين؛ من الفقراء؟!.

لو أطلقت سراحهم، لكان لي على الفقراء دالة أدل بها، فالفقراء؛ ليسوا كلهم من (البيازين)، وشيخهم هذا الشيخ المتعجرف؛ الذي لا يرضيه العجب، ولا الصيام في رجب؟!.

يقولون أنه يستند في أفكاره وطروحاته؛ على المثقفين، ويقولون أن المثقفين أبناء الفقراء؛ ترى لماذا لا يصيرون من أبناء الأمراء أو من أبناء المتسولين؟!

هذا عجب، وهؤلاء بعض أبناء عمي -الذين تعلموا- لا ينافسونني على الإمارة، -كما يفعل غيرهم- لكن بعضهم بعيد عن التفكير بالسلطة، وبعضهم الآخر متواطئ مع الفقراء و(البيازين)، لماذا لا يساعدونني؟!.

- لماذا يحدث هذا؟!.
- أليسوا من العائلة الحاكمة؟!.
- لماذا يتعاطفون مع الفقراء، فيشاورهم شيخهم، ثم لا يتعاطفون مع سيدهم؛ أميرهم الذي هو من دمهم ولحمهم، الذي يقدم لهم العطاء، فبدونه يصبحون من الفقراء؟!.
- لماذا خلق الله المثقفين؟!.

لكن إذا فكّرتُ في استقبال شقاة مملكة الشمال وجناتها، ووفقت بينهم وبين شقاة الإمارة وجناتها لموازنة الجيش والمتسولين، فهذا يحتاج إلى عفو عام، والعفو العام يعني أن ينطلق السياسيون المعارضون، كما ينطلق الشقاة والجناة، وهذا يعني عودة الأفكار التخريبية، والتنظيمات المخالفة، فما العمل؟!.

لعلها الوسيلة المثلى التي اقترحها هذا الوزير القدير، لقد اقترح تبييض السجون السياسية أولا، ثم إصدار عفو عام شامل، لن ينطلق إلا الطغاة والشقاة، ويظن الجميع أنني قد أطلقت سراح الجميع؛ في هذا منافع عديدة؛ منها أننا لن نحتاج إلى إطعام كل هذه الأفواه المفتوحة، ثم إننا سنستطيع إغلاق الكثير من السجون؛ مستغنين عن حرسها الذي سيتفرّغ للقتال؛ ضد جنود ملك (الروم) إذا هاجمونا، لكن ابن عمي –المثقف (سعيد)- لم يبخل عليَّ بخبرته، فقد خشيَ أن يتحوّل هؤلاء الشقاة والجناة والطغاة؛ إلى أمراض تسري بين الناس، فلا تسهل السيطرة عليها، والوقاية خير من العلاج، ربما يكون هذا الكلام صحيحا، لكن ملك (الروم) الأحمق؛ يظن أنه يفاجئني، فلا أدري من أين جاء ولا كيف؟!.

الضباط المثقفون؛ حذّروني من هذا الحال، فمن الطبيعي أن أفاجئ ملك (الروم) حيث لا يتوقع، فكيف أفاجئه وأين وبماذا؟!.

لقد اقترح عليَّ شيخ المتسولين؛ أن تكون عصي المتسولين -الآمرين بالمعروف؛ الناهين عن المنكر- له بالمرصاد، سيحشدون قواتهم في المحلات الشعبية، بين البيوت والأزقة الضيقة التي لم نفتحها كي نستقبل مثل هؤلاء الأعداء؛ نعم إنه اللقاء غير المنتظر، إنهم لن يتوقعوا وجود الدبابات والمدرعات والمدفعية، بين البيوت وفي الأزقة، وعند المحلات؛ عند ذاك، لن يضطر الجندي أو الضابط؛ إلى مغادرة منطقته للقتال خارجها، وبالتالي، فراتبه سيكفيه، ولن يفر من الدفاع عن بيته، إنهم سيفرون؛ مع أنهم وعدوني بالصمود، فكما كذبت عليهم، فهم يكذبون عليَّ، مَن المثقفون؟!.

➢ **ما حاجتي إليهم؟!.**

أنا القانون، إذا قلت، قالت (قرطبة)، أنا أصنع القانون).

وصدرت ثلاثة أوامر على التوالي؛ الأول شبه سري:- (بيضوا السجون السياسية)، وتمَّ إعدام كل السجناء السياسيين؛ سجناء الرأي، ولم تنتبه مؤسسات حقوق الإنسان، والتي انتبهت؛ كانت حذرة خائفة، إذ قد يكون هذا الكلام صحيحا، وقد تكون إشاعة، فيخجلون من الكلام عنها.

فلما انتهت تلك المهمة بنجاح قلَّ نظيره؛ قلَّ مَن التفت إليه على الرغم من خطورته؛ صدر الأمر التالي المتمثل في عفو عام عن كل السجناء في الإمارة، وأنطلق الشقاة والجناة والطغاة، واخذوا فترات متفاوتة من الراحة؛ بدؤوا فيها بإعادة تشكيلاتهم وتنظيماتهم، وبدأ دبيبهم يظهر، وخطورتهم تبدو، والكلام عنهم يتناثر، والمرض ينتشر، لكن ما العمل؟!.

- كيف يمكن القضاء عليهم؟!.
- أين هم اليوم؟!.

لقد تفاهموا مع الشرطة المتفككة، والمتسولين الطاغين على السلطة، والوضع لا يسمح بالتفرغ لهم، فكانوا يسرحون ويمرحون؛ يشربون؛ يحمون محلات الخمور التي صار يطاردها المتسولون، إذ لم تعد تعنى بالصدقة، ولا تدفع الزكاة، وصاروا يرافقون البغايا والزانيات إلى الملاهي؛ يحمونهن فيها؛ يتزوجونهن كي ما يحموهن في الداخل من الجلد أو ينطلقوا بهن إلى الخارج؛ يمارسن ما أحببْنَ؛ بعضهم؛ كان يعمل تحت نظر المتسولين، فلا يضطر لشيء إلا إذا تجاوز سلطتهم؛ عند ذاك؛ يظهر السيف العادل، ليقتصَّ من الزانية أو

مَن ترشد إليها أو مَن تُيَسِّر لها السفر خارج (قرطبة)، ومع ذلك، بقي بعض الشقاة؛ عاطلين عن العمل مما جعلهم يشربون الخمر على قارعة الطريق؛ كاتبين على زجاجاته:- (قاتل مأجور)، وكثيرا ما تلوّث الأشراف، بما فعله الأشرار، وهنا، فقد تعود المياه إلى مجاريها، لكن مياه المجاري -بالحقيقة- بدت واضحة عبر التخسفات والتكسرات التي لم يعد يعنى بإصلاحها أحد في الغالب.

أما الأمر الثالث، فقد صدر قبل وصول جيش (الروم) بوقت ما؛ كان سريا مطلق السرية، لكن شقاة الملكة وغيرهم من الشقاة والطغاة والجناة؛ كانوا معبئين ضد شعب (قرطبة) المسكين المضحي، لقد سارت مسيراتهم الصغيرة؛ في مختلف المدن الحدودية وغيرها، لم تتسلّط عليها وسائل الإعلام، لأنها لم تكن تريد أن تنبه إليها، ولأنها كانت مشغولة بأخبار زحف (الروم)، والجيوش المرافقة الأخرى للقتال؛ كانت جيوشا جرارة؛ لم يرَ العالم مثيلها من قبل، لقد رأى أعدادا أكبر منها بكثير، لكنه لم يرَ إعدادا أفضل، ولا عُدَدا أكمل، كل هذه القوات المدججة بالسلاح حتى الأسنان؛ جاءت لتقاتل جيشا مترهلا؛ مليئا بالكذابين؛ باع قادته (قرطبة) -مع أنهم من أقارب الأمير- قبل أن تدق القوات الأبواب؛ هذا الجيش الجائع المترهل؛ كان يراد له أن يقاتل.

اختـــلاط الأوراق

بينما صدر أمر تبييض السجون، وتم تنفيذه؛ صدر أمر العفو العام عن السجناء، وتم تنفيذه كذلك، لقد انتهى أمر سجناء الرأي بالإعدام، وانتهى أمر السجناء العاديين -مهما كانت أسباب إدانتهم- إلى النجاة؛ لم يعرف أهالي سجناء الرأي مصير أبنائهم، لكن السجناء العاديين؛ انطلقوا لينالوا شيئا من الراحة، ثم ليعودوا إلى عصاباتهم السابقة، فإن لم توجد، شكلوا عصابات جديدة؛ مدعمة بخبرات السجن الطازجة، ما قيمة أن يعمل المتخرّج من السجن (بيازا) أو (زياتا)؟!

➢ كم يكون دخله؟!

مبالغ لا تعني شيئا بالنسبة إلى بنات الليل وبائعات الهوى واللهو، إنهن في حانات الخمارين والملاهي التي لا يصل إليها أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بوصفهم زبائن، كما لا يفكر الفقراء الأنقياء، بالوصول إليها.

- فطلاب هذه الأماكن؛ يحتاجون إلى أموال طائلة للعيش فيها، فمن أين يأتون بتلك الأموال؟!
- أيأتون بها من تبييض النحاس أم من عصر الزيتون والعنب؟!

إن عليهم لكي يعيشوا حياتهم بالطول وبالعرض -كما حدثهم المتحدثون- أن يعملوا معهم في كل ما يكون الدخل فيه عاليا؛ خلافا للأعمال التي يمارسها الفقراء الأنقياء.

وانتعشت العصابات القديمة التي عاد إليها قادتها والناشطون من أعضائها، كما بدأت تشكيلات العصابات الجديدة تظهر، تعلو أسماؤها في سماء

الجريمة والإرهاب؛ في هذا الوقت نفسه؛ بدأت مملكة الشمال بإخراج سجنائها العاديين، بل وحتى سجنائها المعادين؛ تأخذ عليهم تعهدَ ألا يعودوا إليها، ثم تطلق سراحهم وتحملهم على الذهاب إلى تلك الإمارة المهددة بالاحتلال، لقد كان قرار احتلالها متخذا؛ كل ما هناك أنهم كانوا ينتظرون الوقت المناسب، لأن السبب متوفّر، أو يمكن افتعاله متى أرادوا ذلك، كان الجواسيس يتدفقون على الإمارة، بحجة وبلا حجة؛ معروفين أو بصورة سرية؛ الكل كان يعرف ذلك، لكن المسؤولين عن حماية الإمارة؛ كانوا غائبين عن العمل، والفقراء؛ يرون ويتألمون؛ كان الهمُّ يأكلهم، ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟!.

لقد تسلّط المتسولون والوصوليون على كل شيء في (قرطبة)، فلم يعد لشعبها شأن يمكن ذكره؛ بدا الهمُّ يواجه أهل الصناعة والتجارة، فقد افتقر الناس، حتى ما عادوا يبيِّضون النحاس، وازداد فقرهم حتى باعوا ما عندهم من النحاس، ووصل الأمر ببعضهم أن يبيع حتى ثيابه، بل أولاده، وبعضهم؛ عجز عن إطعام أهله، فاغتالهم بالسم الزعاف؛ المخلوط بالماء أو بطعام الوجبة الأخيرة في الحياة.

وفي مثل هذه الأحوال؛ مَن الذي يدفع الضرائب أو يجبيها غير المتسولين المتكلمين باسم الحكومة التي لا تسمع ولا ترى، والناس تخاف شر المتسولين، فيفرُّ منهم مَن يفر، ويصبر مَن يصبر، والأمير ينادي:- (حَيَّ على العبور)، في سفينة أقرب ما تكون من الغرق، وأول الفارين منها؛ فيران المتسولين الذين صاروا من المتموّلين، فلما قلّت الأعمال، وتناقصت الضرائب، وأزداد إنفاق الأموال، لم يعد بمقدور الأمير؛ الصرف على شيء، فحتى قناديل جامع

(قرطبة)، ما صار بيت المال؛ قادرا على الصرف عليها، بعد أن شحت خيرات الجامع وبركاته أو لم تعد تصل إلى السجلات، فإذا انكسر قنديل لا يسهل إبداله، ولو تم إبداله، فهو محتاج إلى وقت طويل، فيه كتابنا وكتابكم، وكم يتأخر الكتاب، لعدم أهمية القضية؟!.

أكثر من هذا، فقد صاروا يرون ترك القناديل بلا إشعال؛ شكلا من أشكال الترشيد، لا في مساجد (قرطبة) وحدها، بل في جامع (قرطبة) الكبير كذلك، حتى في ليالي رمضان والعيد؛ صاروا يريدون ممن يحضر إلى المسجد -أي مسجد- وجامع (قرطبة) خاصة كمية من الزيت لإضاءة قناديل الجامع أو المسجد، ولما كان الناس أفقر من فأر السفينة، ولما كانت فيران المتمولين؛ تفر من سفينة (قرطبة) التي طالما اهتزت؛ لم يعد أحد يذهب إلى الجامع أو إلى المساجد، لا لمجرد أن مَن لا ضوء في بيته؛ يحرم عليه أن يذهب بالشمعة إلى الجامع فحسب، ولكن لأن العاملين في الجامع والمساجد؛ ممن كانوا يسرقون الإمارة، ولم يعودوا قادرين على تلك السرقة، راحوا يسرقون الزيت المقدس؛ المقدم من الناس للجامع والمساجد؛ في ما بعد؛ بعد وقت ما؛ أرتفع سعر الزيت، لأن بساتين الزيتون؛ بقيت تعطي، على الرغم من الإهمال وشدته، لكن (الزياتين) قلوا، لأن اندفاع الناس لشراء الزيت قد قلّ، فلم يعودوا يملكون ثمنه، فلما انغلقت معامل الزيت؛ توقفت الحاجة إلى الزيتون الزيتي، فتخرّبت بساتين الزيتون، وصار يلبي حاجة (قرطبة) القليلة إلى الزيت؛ تجارها، فما تزال في (قرطبة)؛ بيوت قليلة مضاءة بالزيوت أو بالشموع التي توقفت معامل الشماعين في (قرطبة) عن إنتاجها، وتوجه الحال فيها إلى استيرادها، ولما كان

الاقتصاد مثل العجلة، إذا تحرّكت منه نقطة؛ تحرّكت كل النقاط، فقد ابتدأت الصناعة القرطبية العتيدة؛ تنهار شيئا فشيئا، فقد انخفض عمل الغزالات، لانخفاض معامل النسيج، وضعف العمل في معامل النسيج، لأن الناس ما عادت تجدد ثيابها حتى في الأعياد والأعراس، فقد انتعشت تجارة الإعارة؛ العروسان؛ يستعير كل منهما بدلة من أحد محلات الاستعارة، بثمن بسيط؛ يعيدان البدلتين إليه في اليوم التالي؛ أكثر من ذلك، فقد استغنى بعض العرسان حتى عن البدل المستعارة، وأكثر من ذلك، فقد استغنى الكثير من الرجال عن الزواج، وما يترتب عليه من مشاكل المرأة والأطفال ورعايتهم، والحاجات التي لا تنتهي لهم، بل زاد الأمر على ذلك، فكثيرا ما اتفق الزوجان على الطلاق، ليتخلّص كل منهما من مسؤولية صاحبه، وكثيرا ما بقيت العلاقة طيبة بين الزوجين السابقين، لكن بلا عقد.

في ظروف قاسية مثل هذه؛ بدأت جيوش (الروم) تتدفق عبر بحار (الأندلس) وأراضي دولها، لتتجمع بالقرب من حدود (قرطبة)؛ الإمارات والممالك؛ كانت ترى في تلك الجيوش؛ جيوشا صديقة، ربما لم تستقبلها بالزهور، لكنها ترحّب بها؛ تمنحها التسهيلات والقواعد، وتوفر لها الأرزاق والطرق، تصلح السفن في موانئها التي تمر بها أو تقف عندها، ينزل الجنود منها إلى الأرض؛ يأكلون ويشربون ويرقصون، ويمارسون حياتهم كما يحبون، ثم يعودون إلى سفنهم، وقد تم تحميلها بالزاد والماء، بعد أن تمت معالجتها في الطريق إلى القواعد الدائمة، كان المرضى من الجنود ودوابهم يجدون الرعاية والتمريض، وينالون الشفاء في رياض (الأندلس) وجنائنها وعلى أنهارها وبين

نسائمها، حتى إذا حصل الشفاء؛ وصلوا إلى قواعدهم بعد إخوانهم، فليس الأمر مستعجلا؛ هكذا بكل هدوء ووضوح؛ اجتمعت السفن قرب (قرطبة)، وهي تزخر بالجند والسلاح، وفي القواعد المجاورة؛ الفرسان والرجالة من جنود (الروم) وأحلافها من الأعراب والبرابر، ومن معهم من أهل العناد في الأندلس، في هذا الوقت؛ تزاحمت على (قرطبة) المصائب، فقد انهار اقتصادها، وصارت أرضها نهبة لمن هب ودب من جواسيس الأعراب والبرابر، وأهل الحرابة الذين طالما تحرقوا لنهب (قرطبة)، فنهبوها وأحرقوها، لقد انهار اقتصاد (قرطبة)، لتسلط المتسولين على ما يعلمون وما لا يعلمون، بل كان تدخلهم في ما لا يعلمون أكثر من تدخلهم في ما يعلمون، ولكن في ماذا كانوا يعلمون غير التسول وما يترتب عليه من تمول؟!.

في هذا الوقت نفسه؛ تكتلت العصابات، فتقاتلت أو تفاهمت، وصارت تستقبل ضيوفها غير المرغوب فيهم من عصابات مملكة الشمال وغيرها من الممالك التي وجد شقاتها وطغاتها في (قرطبة) الأمن والأرض الصالحة لزراعة الجريمة والإرهاب، فكانت كل عصابة تتغطى بجماعة، لتكون يمينها الضارب، للجماعات المنافسة.

لقد صار الغرباء ينافسون القرطبيين في معيشتهم الضنكة، ومع ذلك، فقد فكَّ الأمير الاشتباك بأن قال:- (إذا سألكم أهل (قرطبة) عن أصلكم فقولوا إننا من (قرطبة) أكثر منكم)، وهكذا فقد استثمرت العصابات هذه الكلمة، لتبتز أهل (قرطبة)؛ متفاهمة مع الشرطة التي تأخذ المتضايق من الغرباء إلى السجون التي عادت إلى الامتلاء، لكنها امتلأت بالمتذمرين بدلا من أن تمتلئ بأعداء القانون.

فـي موقـف السجـن

غرفة شبه مظلمة؛ كبيرة في الظاهر؛ ممتلئة بالناس الصامتين، بين واقف وجالس، لأن المكان لا يكفي لجلوس الجميع؛ هدم هذا الصمت؛ ضجيج السلاسل الحديدية التي ينغلق بها الباب الحديدي الصغير والسميك؛ على هؤلاء الناس، كان الضجيج كبيرا، وكثيرا، ومرعبا؛ انتهى إلى أن انفتحت الباب الصغيرة السميكة على ساحة مظلمة؛ دخل منها رجل جديد، وانغلق الباب؛ معلنا عن انغلاقه بضجيج شديد، لا يقل عن الضجيج الذي انفتح به الباب.

ما أن انغلق الباب حتى تحول صمت الواقفين والجالسين إلى ضجيج مرحب بالضيف الجديد؛ كانوا يصفقون ويصرخون بأصوات عالية؛ صرخات هستيرية؛ تتقاطع معها ضحكات جنونية.

لم يفهم الرجل ما حدث؛ استغربه تمام الاستغراب؛ (ما هذا؟!)؛ ازدادت الضحكات الهستيرية، والتعبيرات غير المفهومة إلا بوصفها شكلا من أشكال الترحيب الغريب؛ هنا بدت صرخة واضحة الكلمات:- ألا تخافون؟!

حتى متى تبقون بهذا الأسلوب الغريب؟!؛ هدأ الضجيج، وكأنهم تنبهوا إلى حقيقة ما كانوا يعرفونها أحدهم قال:- (الحق معك، إنهم مجرمون ظلمة، ولكن ماذا نفعل؟!

ماذا يمكننا أن نفعل لنرحب بهذا الضيف الجديد؟!)؛ هنا تبسم الضيف ضاحكا مما لا يضحك منه العاقل:- (أهكذا ترحبون بالضيوف الأعزاء؟! بارك الله فيكم)، وبألم شديد؛ يعبر عن قسوة الحياة قال أحدهم: (لو لم نفعل

مثل هذا، لمتنا كمدا)؛ الحق معه، فكلنا مظلوم؛ يعرف ظلامة صاحبه، فما ظلامتك؟!.

اروِها لنا بالتفصيل الملل، فالوقت -هنا- ليس له ثمن، (بل ليست له أهمية)؛ (نحن لا ندري إن كنا في ليل أم في نهار)؛ (أخبرنا عن الوقت الآن؛ أهو ليل أم نهار؟!)؛ وما تنفعنا معرفة الوقت؟!.

ليكن ليلا أو ليكن نهارا؛ (كيف لا يهمنا الوقت، ألا تحب أن تذهب إلى عملك في الوقت المناسب؟!)؛ (ألا تحب أن تذهب إلى فراشك الدافئ مع امرأتك في الوقت المناسب؟!)، (وهذه المدسوسة علينا، ألا تريد أن تفعل شيئا؟!)؛ هنا تكلمت امرأة من طرف القاعة البعيد قائلة:- (دعونا نسمع أخبار العالم الجديدة، ثم تعرفون حال هذه المدسوسة عليكم)؛ واستغرب الرجل هذا الذي يجري وهذا الذي يقال؛ (أيعقل أن توقف امرأة مع هذا الكم الهائل من الرجال؟!)، قال هذا في نفسه ثم قال متضاحكا ضحكة متحشرجة:- ما هذا الذي تقولونه؟!.

- أصحيح أنكم جميعا موقوفون في هذه القاعة الضيقة؟!.
- أصحيح أنني لن أفرق مثلكم بين الليل والنهار؟!.
- وطلابي من الذي سيدرسهم؟!.

وماذا سيدرسون؟!)؛ (هذا بطران)؛ (بطران فعلا)؛ (يريد أن يعرف من الذي سيدرس طلابه وماذا سيدرس طلابه، وما أهمية ذلك في نظر الشرطة والغرباء يا رجل، إذا كانوا -وعلى الرغم من دعوتهم الناس للإيمان- لا يهتمون بتعريفنا أوقات الصلوات التي هي عمود الدين؟!.

- ولو نبهونا إلى وقت الصلاة فأين الماء الذي نتوضأ به؟!
- وحين لا يوجد الماء، فهل تركوا لنا ترابا نتيمم به للصلاة يا رجل؟!
- ولو توضئنا أو تيممنا، فأين نصلي؟!)؛ (حدثنا عما جرى لك)؛ (أما ما جرى لي، فلست أعرف ما هو، حتى الآن أتساءل لماذا حدث ما حدث؟!.
- أيعقل أن أكون في مثل هذا المكان؟!.

هذا شيء لم أفكر به ولا في الأحلام)؛ (ليس مهما ما تفكر به)؛ (المهم ما حدث لك)، (أما ما حدث لي فعجيبة ثامنة تضاف إلى عجائب الدنيا السبع)؛ (أما تزال عجائب الدنيا سبعا حتى الآن؟!)، (لا تقاطع الرجل؛ دعه يكمل حديثه)؛ (قبل عشر سنين؛ كانت لي أخت شابة؛ فاتنة الجمال، ولبداية ضعف أحوال الناس، وقلة تمكن الشباب من الزواج أو لا مبالاتهم به، فقد قبلت التزوج من رجل سبعيني ثري؛ عاشت حياتها معه بألم، فقد لبست ما تلبسه الأميرات، وأكلت ما تأكله علية القوم، وسكنت أعلى القصور، وركبت أحلى الدواب، لكنها عاشت تحلم بالحياة مع شاب، ومرت الأيام ثقيلة بطيئة يطول فيها ليل شتاء زوجها الهرم، ويضيع ضوع ربيعها المتألق؛ عاشت له ممرضة، ولم تعش له زوجة، حتى أخذه الله إليه، فخلف لها المال والنخل حمال؛ خلف لها أموالا لا عد لها ولا حصر، ليس أقلها ما كانت تسكن فيه من قصر؛ تحيط به أجمل الرياض، وتخدم فيه أكمل الجواري، والكل في خدمتها ذاهب آيب؛ مالها كثير، وربحها وفير، وتجارتها تملأ الأصقاع، وجمالها يتمناه الشباب الملتاع، فسبحان الخلاق؛ مقسم الأرزاق؛ في هذا الوقت؛ ظهر بين عمالها غريب، له

قلب ذيب؛ في ثياب حبيب، بدأ خادما، ثم ارتقى عاشقا غارما، ووصل الأمر به إلى أن تقدم للزواج منها، فما كان لأحد منا بعد قولها قول، فهي أثرانا، وقد أبدت قبولها خطبة الرجل، لطموحها إلى رجل شاب؛ يعوضها ما فاتها من أيام الشباب، ولم نعترض، لأن الأب واحد، والرب واحد، والخير في ما اختاره الله، ودخل تحت أبطي المرأة، فصار يشتري ويبيع، ولا ترد له كلمة، وأقنعها أن يتصرف بأموالها الموجودة في (قرطبة)، لتنقلها جماعته إلى الخارج، فهناك الحياة أأمن والوضع أكثر استقرارا، والعمل أنفع، والاستثمار أكثر ربحا، ففي (قرطبة) كسدت التجارات، وقلت الصناعات، وزادت العطالة، وكثرت العصابات، وانتشر الخوف، وصار الأثرياء؛ يخرجون من (قرطبة) زرافات ووحدانا، بل إن الفقراء صاروا يفرون منها طلبا للعمل أو أملا في العافية.

وكان هذا كله صوابا، لذلك وافقته على ما قال، ووافقناهما على ما فعلا، فالزوجة تتبع زوجها، وإن كانت الأثرى.

واجتمعت بين أيدي الرجل؛ أموال لا عد لها ولا حصر، وباع كل شيء حتى القصر؛ كل ما هناك أخذ من مشتري القصر مدة أسبوع لإخلائه، وكانت المرأة تستعد للسفر مع زوجها، بل كانت مستعدة لذلك، لكن الرجل لم يعد في ليلته تلك، وتوقعت أنه يقضيها مع أترابه مثل ليالٍ غيرها، وسيعود في الصباح التالي، لكنه لم يعد، وأرسلت إلى عمالها تسألهم عنه، فكان كل منهم يخبرها بأنه مكلف من قبله بأمر يفعله اليوم، فإن لم يتم هذا اليوم، تم غدا بإذن الله، فكان هذا –عندها– دليلا على أنه موجود، وأنه يمارس عمله بشكل طبيعي، ومر يومان وثالث، ولم يعد الرجل، فأرسلت إلى أمين صندوقها؛ تسأله عما إذا

التقى بزوجها خلال هذه الأيام، فأخبرها أنهما التقيا قبل أيام، وأنه أخذ كامل الأموال ليشرف على إخراجها مع جماعة من (قرطبة)، إلى الخارج، ويبدو أنه منشغل بهذه القضية انشغالا شديدا، ولثقتها به، فقد اطمأن قلبها بعض الاطمئنان، لكن شيئا ما في نفسها؛ يحرضها على البحث والاستقصاء عنه، لكن ثقة النساء بمن يحببنَ؛ تغلبت على رغبتها في البحث عنه ومرت الأيام الباقية من الأسبوع سراعا حتى جاء يوم الخميس حيث حضر رئيس العمال لقبض أسبوعيات العمال والمشتغلين في خدمتها، ولم يكن عندها شيء من المال، وقد سبق هذه المسألة؛ مجيء مشتري القصر؛ يسألها الخروج بثيابها قبيل مساء الجمعة، فقد أشترى القصر كاملا مكملا بأثاثه، وأحست المرأة –في آخر لحظة– أن الغريب الذي هو أعز الناس على قلبها، والذي كان أملها الذي فضلته على أهلها ووطنها؛ قد خانها، وبينما طلبت إلى الشرطة البحث عن هذا الزوج الخائن الهارب؛ كانت الشرطة توجب عليها أن تترك القصر لصاحبه الجديد؛ قبل كل شيء، ثم تعطي لعمالها أجورهم، وهي تحاسبها على أنها تتهم الذين هم أفضل أبناء (قرطبة)، بالخيانة واستغلال النفوذ، وخرجت المرأة من القصر إلى مستشفى المجانين، فلم يعد لها زوج –ولو كان شيخا– كما لم يعد لها مال، وهي مدينة للعمال، ولا أمل لها في زواج، لأنها متزوجة فعلا، فتنازعتها الشرطة، وما بقي من أطباء مستشفى المجانين والعاملين فيها، وبينما كنا نحاول ضمها إلى المجانين في مستشفاهم فذلك أفضل من انضمامها إلى مواقف الرجال –مثل هذه الأخت– في مراكز الشرطة، وبينما كنا نتحدث عن ظروفها مع هذا الغريب العجيب؛ أتهم كل منا بأنه يتآمر على (قرطبة)، وجيء بي إلى غرفة كنت فيها منفردا مدة أيام؛ أوشكت فيها على الجنون، وكانوا ينزلونني

منها كل يوم؛ معصوب العينين؛ يسخرون مني، ويضربونني بالعصا على يدَيَّ وإليتَيَّ وظهري، ويرفعونني بالفلقة، قائلين:- أأنت معلم؟!.

➢ **أكنت تضرب الأطفال وترفعهم بالفلقة؟!.**

أنظر إلى حالهم وأنت تضربهم، فنحن لا نفعل غير أن نقلدك، ويشهد الله أنني ما ضربت طفلا في حياتي ولا رفعت رجلا للفلقة، وإنما كنت مربيا يحب طلابه، ويحبه طلابه، وليس هذا مهما –على رأيكم- فالمهم هو أن أعرف سبب حملي إلى تلك الغرفة المظلمة منفردا ثم ضربي مرارا وتكرارا والسخرية مني بلا سبب ثم نقلي لأكون معكم ثم ماذا بعد هذا؟!)، ويضحك الجميع ضحكة غريبة:- (يريد أجوبة على كل هذه الأسئلة)؛ (من الذي يجيبك عن هذه الأسئلة أو غيرها؟!)؛ (هنا نُسأَل فنضطر للإجابة ولو كذبا، لكن لا حق لنا في أن نَسأل)، (وعن ماذا نسأل؟!)؛ (نحن لا نعرف الوقت)، ولا نعرف القبلة كي نستطيع أن نصلي على الرغم من دعوة المتسولين الناس إلى الإيمان، فعن أي شيء تسأل؟!.

ومن الذي تتوقع أن يجيبك؟!، وبعد أن تبادلوا الضحكات الباكية، والتعليقات الساخرة تساءل أحدهم عن هذه الأخت التي تسكن الطرف القصي من المعمورة، والتي قد تكون مدسوسة بينهم، وبدأت تلك المرأة المبحوحة الصوت بالحديث المنخفض الذي يسمعه مَن يسمع ممَن هم قربها خائفة مذعورة خجلى:- (أنا أختكم، ينبغي لي أن أقول لكم ما لا يسهل على فتاة حيية حرة أن تقوله لأخيها، فكيف بغيره؟!.

أما أنا، فقد رأيتكم إخوتي، فاضطررت لأن أقول لكم ما لا يقال، بعد أن قتل الظالمون مَن قتلوا من إخوتي، وشرّدوا مَن شردوه منهم لرفضهم تسليمي

جارية بكرا؛ محتقرة، لأحد الغرباء من أعضاء العصابات التي ملأت (قرطبة) بالسوق السوداء، وسوء الأدب، فكيف يمنعون أختكم القرطبية عمّن هو أكثر أصالة من القرطبيين، كما يزعمون؟!.

وجلبوني إلى هذا الموقف للتحقيق معي حول مكان فرار إخوتي الفارين، وأخبرتهم أنهم قتلوا مَن قتلوا منهم، والباقون، لا أعرف عنهم شيئا، فأصابني من هؤلاء ما لو أصابني من ذلك الغريب -بوصفي جارية له؛ محتقرة- لكان أرحم، فقد أرهبوني أيما إرهاب، حينما دخلت غرفة التحقيق كانت هناك امرأة واقفة مرتعبة؛ تحمل طفلها الرضيع، ما أن دخلت حتى سحب أحدهم الطفل من يد أمه التي صرخت بألم وخوف؛ أمسك الرجل الطفل الرضيع من رجليه ثم ضرب رأسه بالحائط، فانفجر الدم وسقط الدماغ، وصرخت الأم صرخة وحشية، وسقطتْ، وسقطْتُ مغميا عليَّ، فلما صحوت من إغماءتي، لم أجد المرأة ولا رضيعها القتيل، ووجدتني على الأرض، ومجموعة منهم تتحدث بما لا أفهم وتضحك على ما لا أعلم، فلم يكن يشغلني حديثهم ولا ضحكهم، ويبدو أن كبيرهم رأى فيَّ من الجمال ما يغري الكلاب، لذلك أراد الدنو مني واللعب بعرضي، فلما أبيت، اغتصبني -مقيدة- مفتضا بكارتي، بعد أن حاول مداعبتي وملاطفتي ونقلي إلى غرفة خاصة في جناحه بالسجن، لكنني رفضت هذا كله؛ رفض مهرة أبية، فكان رده على إبائي أن أمرهم بتقييد يدي مفتوحتين ورجلي مفتوحتين، وتركي له فريسة باردة، وفعل معي ما لا يفعله إنسان ثم ما لبث أن انهال عليَّ كل مَن هب أو دب منهم، وقد تألمت شديد الألم، ونفرت الدماء من المكان الذي كانوا يسيئون إلي فيه، ومن غيره من أنحاء جسدي، فقد

كانوا وحوشا في زي بشر، ويبدو أن هناك من لا أعرفه؛ ممن أنتبه إلى ذلك، وهم يخافونه، وقد هددهم بكشف أمرهم معي، لذلك رأوا أن عليهم التخلّص مما أصابني، فألقوني بينكم، لعل أحدا منكم يُصيب مني شيئا أو يُتّهَم بأنه قد أصاب مني شيئا، فيؤذى بسببي، ويُعذَّب، ثم يحتمل أثمهم معي، فكونوا على بينة، وكونوا بعيدين عني فلعلنا ننجو من شرهم إذا ما تم عرضي على إحدى القابلات الأمينات اللواتي يرضى بها هؤلاء الناس الذين يخيفونهم)؛ قال أحدهم لصاحبه بصوت خفيض:- (حكاية محتملة)، (وقد تكون حكاية مؤلفة؛ تتخلص بها من مخاطر هذا الكم الكبير من الرجال المحتاجين إلى امرأة، وهي امرأة وحيدة بينهم)، وربما تكون جاسوسة علينا؛ تقول مثل هذا، فلعلها تسمع من بعضنا، ما لم يحصلوا عليه منا بالتعذيب المغلف بالوعد والوعيد، وبالعصي والجزرات)؛ (أما أنا، فلا يخيفني تجسس جاسوس أو جاسوسة، فقد حقق معي رئيس العسس نفسه، وقد ذكرت له الحقيقة، وأنا أنتظر، لا أدري ماذا أنتظر؟!.

كما لا أدري ماذا ينتظرني؟!، (وما هي الحقيقة التي ذكرتها لرئيس العسس نفسه، ولا تخاف من ذكرها أمامنا؟!)، (أما الحقيقة التي ذكرتها لرئيس العسس، فغريبة من الغرائب، لذلك لم يعذبني أحد، ولا أساء الأدب معي أحد، فقط كنت مقيدا؛ جلست أمام رئيس العسس –صدقوا أو لا تصدقوا- طلب لي كأسا من عصير الفواكه، فجاءوني بكأس من العصير؛ لم أذق مثلها من قبل، وسألني عن حكايتي فرويتها له؛ قلت:- (يا سيدي رئيس العسس؛ أنا رجل مغرم بالخيول؛ الرجال تغرم بالنساء، والنساء تغرم بالرجال، أما أنا،

فأغرم بالخيل؛ أحبها أكثر من أمي وأبي، بل أكثر من زوجي وأبنائي، وأتتبعها تتبع الولهان، لحبيبه المهمل، فكنت أسرق الأفراس الجميلة؛ أداعبها؛ ألاعبها؛ أركبها؛ أقضي منها ومعها وطرا، فأملها، أو أرى من هي أجمل منها، فأبيعها لتجار الخيل الذين يعرفونني، ويعرفون أمثالي، ثم يهربونها –كما يهربون النساء الداعرات والأموال المسروقة– إلى الخارج، وفي ليلة من الليالي؛ مررتُ بمحلة مضاءة من محلات (قرطبة) المظلمة، فرأيت قصرا فارها؛ فيه حديقة مزدانة بالورد العطر؛ تجول فيها بهدوءِ العذراء غير الخائفة؛ فرس لم أرى أجمل منها في حياتي، ولا أكمل، ولا أحلى، ولا أكثر دلاً؛ كان الباب مغلقا؛ وبخبرتي الطويلة في فتح الأبواب المغلقة؛ فتحت الباب؛ دخلت الحديقة؛ وجدت ماءً رقراقا جاريا؛ أنقى من الماء الذي نستورده من صحراء (شنقيط) –موريتانيا– شعرت بالظمأ؛ شربت من الماء؛ كنت مخمورا، فغسلت وجهي بهذا الماء العذب، لأرى ما إذا كانت تلك الفرس على ما تصورته، وأنا خارج سور الحديقة، فإذا بها أجمل وأكمل وأحلى مما تصورت، كانت مسرجة، بلجامها وعنانها؛ أخذت اللجام والعنان بيدي؛ سحبتها برفق؛ جاءت معي كما لو كانت حبيبة مطاوعة؛ فتحت الباب؛ خرجْتُ؛ خرجت الفرس بعدي؛ أغلقت الباب بهدوء وضعت رجلي في الركاب؛ أطلقت الفرس، فانطلقت كأنها السهم المنطلق من قوس جيد يحمله بطل صنديد؛ يجيد الرماية و كأنها الريح الشديد في السهل الأفيح المديد، واستمرت على هذا الحال؛ مررنا بعسس غافلين؛ آخرين نائمين، غيرهم غير ملتفتين، ولما كنت مخمورا، ورأيت أنني فعلت فعلا بطوليا، فقد تحرشت بمجموعة من العسس اللاهين؛ صرخت في وجوههم، فتعرضوا لي؛

كلمة مني كلمة منهم؛ أخذوني إلى موقف السجن بحجة أنني خارج في الليل المدلهم، والتجول ممنوع بين صلاة العشاء وآذان الفجر ثم الاعتداء على العسس أثناء تأديتهم الواجب؛ عدا عن أنني كنت مخمورا؛ مسلحا، فبعض هذه التهم؛ تكفي لإعدامي؛ ناهيك عن جلدي، وما سوى ذلك، أما سرقة الفرس، فلم تكن من التهم الموجه إلي حتى وصلت موقف السجن، فأعجب الضابط الخافر بهذه الفرس التي أركب، وساومني عليها، فأما هي، وأما حياتي، وطبيعي أن مخمورا مثلي، لا يفكر في العواقب، فتنازعت معه حول الفرس، ولم أتخلَّ له عنها، فحجز الفرس في إسطبل الموقف وحجزني هنا، وما أن أصبح الصباح حتى توزع كتاب صادر عن رئيس العسس؛ على كل مراكز العسس؛ يتحدث عن الفرس المسروقة وصفاتها، وهنا تنبه رئيس السجن؛ إلى وجود فرس محتجزة، فلما نظر إليها، وطبق عليها الصفات الموجودة في الكتاب، وجدها منطبقة تمام الانطباق، وأرسل إلى رئيس العسس؛ يخبره أن الفرس وسارقها عنده، فأمر رئيس العسس ألا يتعرض لي أحد ولا للفرس بشيء حتى يأمر بغير ذلك، وصدر الأمر باستعادة الفرس، وجاء رئيس العسس، وجلس على مكتب رئيس السجن، واستدعاني مقيدا دون أن يتعرض لي أحد بشيء من التعذيب، فوصلت إليه كما أمر، وأجلسني على كرسي يقابله ونظر إلي بتعجب واستغراب، وأمر لي بكأس من العصير، وسألني متعجبا عن كيفية تمكني من سرقة الفرس، فأخبرته بما فعلت، وأوشك أن يغمى عليه لاستغرابه ما حدث، فإذا كانت سرقة أفضل أفراس رئيس العسس، بهذه السهولة، فكيف الحال في بقية أنحاء (قرطبة)؟!.

وأضفت له أنني لم أسرق الفرس متعجلا، ولا خائفا، ولا وجلا، بل شربت من الماء، وغسلت وجهي، وفتحت الباب وأغلقته، ولم يتعرض لي أحد، فصدق ذلك كله إذ لو رآني أحد أو تعرض لي؛ ما كان بمقدوري أن أسرق الفرس، غير أنه استغرب إمساك العسس لي، فأخبرته بأنني أنا الذي لم أرضَ برزقي، فتجاوزت عدة مجموعات من العسس؛ لم تُعنَ بي، فلما رأيت المجموعة التالية من العسس، وهي لاهية؛ صرخت في وجوههم، فثارت ثائرتهم؛ أوقفوني؛ كلمة مني كلمة منهم؛ أخذوني إلى موقف السجن، وهاأنا ذا بين يديك يا مولاي)، وهز الرجل رأسه؛ فاغرا فاه عجبا، لا يدري ما يقول لي، لكنه تساءل عن عملي لو لم أكن سارقا للخيل؛ عاشقا لها، فأخبرته أنني كنت من أفضل النساجين في (قرطبة)، وتضاعف عجب الرجل، (لماذا تسرق الخيول إذن ودخل النساجين؛ دخل مرتفع قياسا إلى غيرهم من أصناف العمال؟!) وهنا كان علي أنا أن أهز القيد ساخرا متعجبا، لأن يدي لم تكونا قادرتين على الاهتزاز إلى بالقيد لأجيبه قائلا:- (يا مولاي العظيم؛ كم دخل النساج الجيد في اليوم الواحد؟!.

- عشرة؟!.
- خمسة عشر؟!.

قل عشرين، وهذا ما لا يناله نساجو الأمير، فماذا أفعل بهذا المبلغ الزهيد؟!

أنا أقول لك:- مال الحلال للحلال، والمال الآخر لغيره، أنا نساج ماهر؛ أنال ما أناله من المال، فأصرفه على والدي وأخواتي العوانس، وإخوتي الصغار، وزوجي وأبنائي، لكنني -كما قد تعلم يا مولاي- فارس ليل، لي من

المغامرات ما لي، ففي (قرطبة) حانات مكلفة جدا؛ فيها أجمل النساء؛ يسكب فيها الخمر كما ينزل المطر المدرار، فمنهن من تدعونا إلى الخمر، وبعضهن تستحرم الخمر المحرم في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فتدعونا إلى المخدرات التي لم يذكرها القرآن الكريم والحديث الشريف بشيء، فهي – على هذا- مباحة؛ يوشك المتسولون كلهم أن يبيحوها، بل هم يتعاطونها، والكلام بيننا –يا مولاي- فصحيح أن الخمر مكلف في مثل تلك الحانات، لكن المخدرات أكثر تكلفة؛ يزيدها الميسر والنساء؛ تكلفة على تكلفة، فالواحد منا يحتاج الألف والألفين، في الليلة الواحدة، وهو ما لا نكسبه من الميسر، فلا تبقى لنا إلا السرقة والاختطاف والتعهد بالقتل وما إلى ذلك من الأعمال المنتجة للأموال الكافية لمثل هذه الليالي المضاءات؛ في (قرطبة) المظلمة)، وهز الرجل يده تعجبا ثم أمر بي أن أُعاد إلى حيث أنا، وهاأنتم تروننني بينكم أطمح إلى قطرة خمر أو شمة من مخدر أو لمسة لامرأة أو فرس أنطلق عليها لا أدري إلى أين)؛ (انطلق بفكرك إلى حيث لا تدري، أما نحن، فنرنو إلى حكاية الفران)؛ (الفران، الفران، الفران)؛ هكذا صاحوا بأجمعهم؛ (حكاية الفرّان)؛ (اروووا له حكاية الفرّان)؛ (ليروِ الفرّان حكايته، فهو أفضل مَن يرويها، وهي من أفضل حكايات (قرطبة) المضحكة المبكية)؛ قال الفرّان:- (أما حكايتي، فمما يشيب له أبناء المهد، فقد كنْتُ أعمل فرّاناً في إحدى محلات المتبطّرين، وكان في هذه المحلة؛ جماعة من المتبطلين الشقاة والغرباء؛ أعجبهم -في ذات يوم- أن أشويَ لهم دجاجة رومية؛ محشوة بالرز والجوز واللوز والزبيب، وكان -كل ذلك – متبّلا؛ موضوعا على طبق، ما إن وضعت الطبق في الفرن، وبعد أن مست النار

الدجاجة المحشوة بعض مساس حتى بدأت رائحة التوابل الطيبة تظهر؛ فاحت تلك الرائحة الطيبة في الفرن ثم ما لبثت أن خرجت منه إلى الطريق وقت أن كان القاضي العادل؛ يمر –في حاشيته وبين حمايته– بالفرن، وشم تلك الرائحة العذبة، وسلم عليَّ لأول مرة في حياته، ليسألني عن هذه الرائحة الطيبة التي تفوح في الفرن وتعطر الطريق، فأخبرته بأن بعض الشقاة والغرباء؛ قد حملوا إلى الفرن؛ دجاجة محشوة متبلة؛ يريدون أن يتغدوا بها هذا اليوم، فأمرني القاضي أن أرسل الدجاجة له في المحكمة حين تنضج، فإذا طالبني بها الغرباء؛ زعمت أن الدجاجة طارت، وأني ألقيت لها بالحشو، فالتقطته وفرّت، فإذا وقع الخلاف بيننا، حضروا معي إلى المحكمة، وهو يحل الإشكال، فبقيت بين نارين:- أأرضي القاضي وأغضب الغرباء أم أغضب القاضي وأرضي الغرباء؟!.

وانتهت حيرتي بأن أرسلت الدجاجة المحشوة المتبلة؛ إلى المحكمة؛ إرضاءً للقاضي، وأنا أتوقع ما سيواجهني من الشقاة الغرباء، وجاء الشقاة الغرباء، فلم يشموا ريحا ولا رأوا دجاجة مشوية، واستغربوا الأمر، وتساءلوا عن أخبار الدجاجة المحشوة، فزعمت لهم –كما أمر القاضي العادل– أنها طارت، وفتحوا أفواههم متعجبين عن كيفية طيران دجاجة محشوة ومتبلة ومشوية، فأين الحشو؟!.

وزعمت لهم –على حد أمر القاضي العادل– أني ألقيت لها الحشو، فالتقطته وفرت طائرة، فما كان من أحدهم إلا أن ضربني على وجهي كفا، ولكمني الآخر، واستمر الضرب واللكم بالأيدي والأرجل يترى، وأنا أطالب

بالذهاب إلى القاضي في المحكمة، ليحل المشكلة، وجروني في الطريق؛ يشبعونني ضربا ولكما وركلا، وعطف عليّ عبد فحاول إنقاذي فصار إصبعي في إحدى عينيه، فانفقأت، وشاركهم الضرب، وتبعهم إلى المحكمة، هنا رآني أحدهم أُضرب هذا الضرب العنيف، وأجر بشدة، فأراد إنقاذي وكانت يداي ورجلاي تتحركان بلا وعي مني، وكانت معه زوجه الحامل التي أصابتها رجلي في بطنها، فأسقطت جنينها، فشاركهم الضرب، وتابعهم إلى المحكمة، وهنا شاغت روحي، وكان أمامي حمّار يقود حماره، فأمسكت بذيل الحمار عله يجرني بسرعة، فيخلصني من كل تلك الأيدي والأرجل الغاضبة عليّ، فانقطع ذيل الحمار في يدي، وشاركهم الحمّار الضرب ووصلنا إلى المحكمة، وكان القاضي يعلم أنني سأصله، فاستقبلنا حاجبه، وبدأت المحكمة، فتحدث ممثل الشقاة الغرباء عن قضيته وهي أنهم أحضروا إلى فرني دجاجة رومية مذبوحة محشوة بالجوز واللوز والزبيب والرز المفلفل؛ موضوعة على طبق، وأنني وضعت الطبق -بما فيه- أمامهم في الفرن، فالدجاجة في طريقها إلى الشيّ، فلما عدنا إليه وقت الغداء؛ زعم أنها طارت، وأنه ألقى لها بالحشو المفلفل، فالتقطته وفرت طائرة فتساءل القاضي عن الغريب في هذا الأمر، وتعجب ممثل الشقاة الغرباء؛ من هذا التساؤل؛ (أتطير دجاجة مذبوحة محشوة مشوية؟!)، فتساءل القاضي عما في ذلك:- أليس الله –سبحانه وتعالى- يحيي العظام وهي رميم؟!.

أتشكون في ذلك يا كفرة؟، واسقط في أيدي الشقاة الغرباء، فلا جواب لهم عن هذا السؤال، فإن الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- يحيي العظام وهي رميم، فلا غرابة في أن يحيي مجرد دجاجة محشوة مشوية، لذلك حكم القاضي عليهم بدفع مائة

جزاءً عن إزعاج المحكمة، ودفع مائة أخرى لي، فقد آذوني بالضرب والتكذيب، ودفعوا المائتين لأمين صندوق المحكمة، وانصرفوا خاسرين للمال وللدجاجة المحشوة.

أما القضية الثانية، فكانت قضية العبد الذي أخبر القاضي أنه تألم لأنه وجدهم يضربونني ويسحلونني على الأرض، وأراد تخليصي من بين أيديهم، لكنني فقأت عينه بإصبعي، فأبدا القاضي ألمه لما حدث وتعاطفه مع العبد، وأخبره أنه عبد، فعينه بنصف عين حر، فلو مكنني من فقأ عينه الأخرى، لحق له أن يفقأ إحدى عينيَّ بوصفي حرا، وتخلى العبد عن عينه المفقوءة، فعبد بعين واحدة؛ خير من عبد فاقد لعينيه، وهنا هب القاضي في وجهه، وحكم عليه بمائة جزاءً عن إزعاج المحكمة، ومائة أخرى لي، لأنه شارك في ضربي، واسقط في يد الرجل، فدفع المائتين إلى أمين صندوق المحكمة وأنصرف آسفا.

أما القضية الثالثة، فكانت قضية الرجل الذي أسقطت زوجه جنينها؛ نتيجة ضربة من رجلي لبطنها، فحكم القاضي بأن يعطيني الرجل زوجه أقضي معها عاما تحمل فيه ثم أعيدها إلى زوجها، وكأن شيئا لم يكن، وأبت غيرة الزوج ذلك الحكم قطعا، فحكم القاضي عليه بمائة جزاءً لإزعاج المحكمة، وبمائة أخرى لي، لأنه شارك في ضربي، وبينما كان الرجل يدفع المائتين لأمين صندوق المحكمة؛ فر الحمّار بحماره وذيله المقطوع وهو ينادي:- (ذيل حماري مقطوع من عشر سنين)، وانتهت حكايتي مع الشقاة الغرباء، والعبد، والزوج، والحمّار، لكن حكايتي مع القاضي العادل؛ لم تنتهِ، فقد ضننت أن الله فتح لي أبواب السماء، فأغدقت عليّ ثلاث مائة، وطالبتَ القاضي بها، فماطلني فيها،

وضننت أنه يريد منها شيئا، فساومته عليها، فلما رأى إصراري على المطالبة بحقي في هذا المال؛ أرسل بي إلى هذا المآل، ولا أدري إلى أين ينتهي بي هذا الحال) وهنا كان لسلاسل الباب الصغير المغلق ضجيج وعجيج، فلما انتهى بالانفتاح؛ دخلت أرغفة الخبز التي يتم توزيعها على من في هذا المكان، بينما كان المعلم ينشد قول المعري:-

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي.

فلما سمع الموكلون بتوزيع الأرغفة على من في هذا المكان؛ اسم المعري وهذا البيت؛ قال قائلهم:- (يا أيها المجرمون؛ تتآمرون على سمو الأمير، وتشتمون الغرباء الذين هم أكثر أصالة من أهل (قرطبة)، وتتغنون بشعر هذا الكافر الزنديق (أبي العلاء المعري)؟!.

أنتم إذن تستحقون الجوع، وستنفتح عليكم عذابات الجحيم فانتظروا إنا معكم من المنتظرين) وسحبوا الأرغفة من بين الأيدي وعادت السلاسل إلى الضجيج والعجيج والباب ينغلق.

الـــراعـــية وهـــمّ الأمـــير

كان وجه الأمير؛ مكفهرا، وكانت ماشطة الحريم، بالقرب منه، بحاستها الأنثوية المدربة؛ تنبّهت إلى معاناة الأمير، وبرغبتها الدائمة؛ في التقرّب منه بأيّ ثمن؛ سألته عما يشغله، وماذا يمكنه أن يقول لمثل هذه المرأة المدرّبة؛ على فهم الرجال، ومعاناتهم، وحل مشكلاتهم العاطفية، بشكل يسير؟!.

- هل هي قادرة على حلّ هذه المشكلة؟!.
- هل هي قادرة على المساعدة في حلّ هذه المشكلة المعقّدة؟!.
- ما هي مشكلة الأمير السعيد؟!.

إنه يعلم أن لكل مشكلة حلاّ؛ (ربما، لكنها – هذه المرة- قد لا تجد الحلّ عندك)؛ (يا سموّ الأمير الخطير؛ حين تصل المشكلات إليّ، فإنها تجد الحلّ أو الجزء الأهمّ من الحل)؛ (لعلّ وعسى، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجعل أمره في أضعف خلقه)، (وأنا -في الحقيقة- لست من أضعف خلقه، فألقِ همومك على الله وعليّ، وستجد الحل بإذن الله)؛ (هل تعرفين مَن كان عنديَ اليوم؟!)؛ (ديوان الأمير عامر، وقد جعله الله -سبحانه وتعالى- باب حلّ مشاكل الناس)؛ (هذا صحيح، لكنني اليوم محتاج إلى مَن يحلّ لي بعض المشاكل؛ يقولون أن لدى المثقفين حلولا للمشاكل، وقد أرسلت إلى صديق قديم؛ كان معي أيام الطلب هو استمرّ في طلبه للعلم، أما أنا، فقد انشغلت بعواطفي، ثم بما آل إليّ من أمر الإمارة، فتخلّيت عنه، فلما حزبني من أمر الناس ما حزبني، ورأيت سخط الناس الذي يضاعفه فساد الأعوان؛ عدْتُ إليه، وأردت أن ألقي عليه بعض أحمالي مما أعانيه، وأنني أريد منه أن يكون لي وزيرا، فألقى عليّ

كلاما لا أدري ما إذا كان حقا أم لم يكن؛ من مثل أننا نذهب بالمريض إلى الطبيب، فإذا ما مات دفنّاه، لأن الأموات لا تحيى إلا بقدرة الله – سُبْحَانَهُوَتَعَالَىَ– أو بمعجزة، وأمور أخرى من هذا الكلام الذي لا يسمن ولا يُغني، من جوع –وهو ما كنت أسمعه كثيرا من معلمتي– أنا محتاج إلى وزير يحلّ لي المشاكل، دون أن يبكّتني؛ يقول لي:-(أحسنت)، ولا يناقشني؛ هذا يقول لي: (على بابك ألف ظلامة مظلوم؛ رُدَّ لهم حقوقهم، وأنا أكون لك وزيرا)، لو كنت أريد أن أعطي كل ذي حقّ حقّه، فما حاجتي إليه؟!)، (وانتهت المقابلة، فماذا حدث من بعد ذلك؟!)؛ (تمنيت لو لم أُنهِ مقابلة الرجل، فبعده بلحظات؛ دخل عليّ قوم عندهم مشكلة؛ لم أجد لها حلاّ، وإلى مَن التجئ بعد أن خرج الرجل المثقّف المخلص الوحيد؛ شبه طريد؟!)؛ (ما هي المشكلة التي عرضوها عليك؟!.

ولماذا هذا الاهتمام بها إلى هذا الحدّ؟!)، (لقد علمْتُ –في ما بعد– أنها إحدى مؤامرات شيخ المتسوّلين عليّ، إنه شخص له ما للرجل وما للمرأة، وقد مات أبوه، فكيف يورّثونه؟!.

- **أيعطونه حق رجل؟ أم يعطونه حقّ امرأة؟!.**

والمال كثير؛ عليه خصام كبير، بين هذا الشخص وبين أخوته، فإن حكمْتُ له بحق رجل؛ ثار عليّ أخوته، وقالوا حقّه حق امرأة، وإن أعطيته حق امرأة؛ ثار عليّ بما عنده من مال، وقد عرضته على القاضي الذي ردّ القضية، بوصفها قضية لا يحكم فيها إلا أعظم رجل في الدولة، فإن ردتها عليه؛ كان هو أعظم رجل في الدولة، وحق له مطالبتي بترك السلطان الذي اعترفت له بأنه يستحقه

بوصفه الأعظم؛ مثل هذا يقال في أي رجل آخر أعرض عليه القضية، وأنا متوحّل في هذه القضية، لا أدري ماذا أفعل)، (وماذا قلت للقوم؟!)؛ أجّلتهم إلى غد، ولو كنت أدري أن القضية معضلة إلى هذا الحد، لأجّلتهم أسبوعا أو شهرا بل سنة، فما يهمّني حتى يفعل الله أمرا كان مفعولا)؛ (لم ترتكب خطأا، وحدّ علمي أن هذه المشكلة؛ مشكلة عاطفية، لا تحلّها إلا امرأة جديدة تعرض لك، فتكشف لك عما تحبّ هي أو يفتح الله بها عليك، وعندي من جواريك فتاة؛ لم تفكّر بها، وطالما سخرت منها، وهي -في ما أرى- أحسن مَن تريح منامك في هذا الليل الجميل، فإذا ما ارتحْتَ بها ومعها؛ يسّر الله لك وعليك، وحلّ لك المشكلة)، (مَن تلك الفتاة؟!)، (إنها راعية الغنم -(طليّة)- التي طالما سخرتَ بها وضحكت منها، إنها فتاة غير مبالية، لا تأبه بشيء، ولا تفهم شيئا؛ تطيعك ما أمرتها، ولا تردّ لك طلبا)؛ (هذه الشعثاء الورهاء؟!)؛ (نعم إنها تلك الشعثاء الورهاء؛ التي لم ترَ أجمل منها قبل اليوم، ولا تلك التي أخذتك من طلب العلم)؛ (حسن، لننظر ماذا تفعل ماشطة جوارينا الحسان)، واستأذنت بالانصراف، وانصرفت، والأمير يفكّر في هذا الذي سيكسبه من (طلية) التي لا تجيد إلا رعيَ الغنم، بل لا تجيد رعيَ الغنم، فطالما سخر منها فلم تعبأ بسخريته، إنها تسرح بالغنم إذا عاد الرعاة، وتعود إذا رجعوا، لا أحد يعرف ما إذا كانت تفعل هذا حمقا أم هي تفعله عن قصد لا يعرفه أحد؛ لم يمت واحد من خرافها، ولم يختطف الذئب من غنمها شاة -كما يحدث للكثير من الرعاة- ترى أكان هذا لأنها أمينة بينما يسرق الآخرون؟!.

- أم لأنها ذكية ليس في ذكائها أحد، وهي ممن يستعينون على قضاء حوائجهم بالكتمان؟!.

- لا أدري، ولكن هل تستحق هذه الحمقاء أن أفكر بها كل هذا التفكير، وأن أصرف لها كل هذا الوقت؟!.

مرة أخرى، لا أدري، لكنه -على كل حال- يجعل سره في أضعف خلقه، وليست هي أضعف خلق الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَى- الحكم مشكلة عويصة، وواجب الحاكم حلّ مشكلاته؛ أكثر من أن يكون واجبه التفكير في ما بين رجليه، أما ماشطة الجواري، فليس من شأنها شيء غير ما بين الرجلين أو هي تهيئ لإنصاف ما بين الرجلين، فإذا لم أفكر في ما بين رجليّ، ففيمَ أفكر؟!.

وانصرفت الماشطة من بين يدي الأمير، وهي تفكّر في ما ستزيّن به طليّة، ليرضى الأمير عن جمالها؛ طلبتها حيث ينبغي أن تكون، فلم تجدها؛ هي -على عادتها- قد ذهبت إلى المرعى قرب العصر؛ أرسلت إليها مَن يعود بها وبغنمها حالا، بعد وقت قصير؛ كانت قد رسمت خطة تجميل الفتاة، وعادوا بالفتاة من المرعى مرتبكين؛ الفتاة خائفة:- (لم أفعل شيئا يا سيدتي)، وأسكتتها الماشطة؛ هدأت من روعها؛ طلبت إليها ألا تخاف، إنه أجمل يوم تحلم به فتاة، ستكون بين يدي رجل هذه الليلة، وصرخت الفتاة:- (مَن عبدان؟!)؛ (أي عبدان يا حمقاء، إنه حلم كلّ جارية، إنه الأمير؛ الأمير نفسه)؛ (ماذا؟! الأمير نفسه؟!)، وصمتت الجارية؛ أسلمت نفسها بكل هدوء، للأيدي الناعمة التي غسلت جسدها كما لم تغسل من قبل؛ الصابون نفسه؛ معطّر، فكيف حال العطور؟!.

- كانت العطور مما لم تشمه من قبل، وأين تشمه؟!.
- وكيف تشمه؟!.

كانت النساء يدلكْن جسدها الغض، ويمشطْنَ شعرها الناعم الليلي؛ يعددْنها للأمير، وهي تفكّر في عبدان الذي يهواها وتهواه، وماذا سيكون للأمير معها أكثر من نزوة، ثم ينساها؟!.

كم هن الجواري اللاتي نزا عليهن، ثم نسيهن ولم يذكرهن؟!.

هي؛ واحدة منهن، أما عبدان، فلا يحلم إلا بها؛ لم تحلم إلا به، وحينما يسفّدها الأمير وينساها؛ هل سيكون لها أن تتزوج من عبدان؟!.

- ومَن عبدان هذا الذي يتزوّج امرأة نزا عليها الأمير؟!.
- لكن أليسوا يتحدّثون عن السيدة صبح؛ التي تزوّجها سيد الناس الوزير المنصور ابن أبى عامر؟!.
- ألم يكن زوجها -قبل أن يموت- خليفة؟!.
- ألم يكن ولدها -بعد أن مات أبوه- خليفة؟!.
- ألم تكن امرأة تطلب الرجال؟!.
- فالجواري التي ينزو عليهن ساداتهن من الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم، السْنَ نساءً؟!.
- ألا تصرخ أجسادهن في ليالي الشتاء الطويلة:- (أريد رجلا؟!)، ولكن مَن عبدان بالنسبة إلى المنصور؟!.
- ومَن أنا بالقياس إلى صبح؟!.
- لماذا؟!.
- أليس عبدان -في الآخر- رجلا مثل المنصور؛ يحتاج إلى امرأة؟!.
- إنه أكثر حاجة للمرأة من المنصور، فكم هن جواري المنصور؟!.

- ومَن لعبدان من النساء غيري؟!.
- وإذا كانت السيدة صبح؛ قد تزوّجت، وخلّفت، فأين أنا من هذا كله؟!

ليست إلا كلمات خجولة؛ يقولها عبدان لي، وأخجل من أن أجيبه؛ ماذا سأقول له غدا إذا سألني عن السبب الذي منعني من أن أسرح بالغنم؛ في الوقت المعتاد؟!.

- مَن يدري ما الذي سيحصل في الغد؟!.
- سأجد له جوابا لو أمكنني أن أسرح بالغنم، ما أقسى ألا أسرح بالغنم؟.
- والله إن ألف أمير، لا يساوون رجولة عبدان؛ كم مرة حمى كباشي من أن يسطو الذئب عليها؟!.
- وكم مرة أراح الكلابَ، والغنمُ تسرح في المرعى وتمرح أو ترد الماء؟!.
- كنت أعقد له عقود الورد، وأضعها في أعناق الكباش، أما هو، فقد كان يصنع أكاليل الورود الجميلة، ويتوّج بها رأسي أو يغطّي بها عنقي؟!.
- آه من أول قبلة عجلة وحرى؛ طبعها على خدي!.
- لقد اكتشفت بعدها أنني امرأة؛ لم أكن أعلم ماذا يعني جسدي حين ينتابني الحنين؛ إلى ماذا يدعوني ما بين رجليّ؟!.
- قلبي؛ كان يخفق، فلماذا كان يخفق؟!.
- بماذا كان يطالبني؟!.

في ذلك الوقت؛ كنت أتمنى أن تكون أمي معي، لأفهم منها لماذا صار اللون الأحمر-في بعض الأيام- يلوّن ما بين رجليّ من ملابس؟!.

- لماذا تثور أعصابي، وإن كنت أخاف من إعلان ذلك؟!.
- آه مما سيكون في هذه الليلة؛ كم كان جميلا لو أن أمي كانت معي؟!.
- إنهم يرونها ليلة العمر فلماذا؟!.
- مَن أسأل عن هذا؟!.
- هل أسأل الماشطة؟!.
- ولو سألتها فهل ستجيبني؟!.
- ما مهمتها غير أن تجيب أمثالي عن أسئلتهن؟!.
- إنها محسوبة الأمير، فمَن أنا حتى تنشغل بي؟!.
- لا أنا اليوم تكليفها، ومهمتها إرشادي؛ هل أعرف كيف أكلّم الأمير؟!.
- هل كان أبي أميرا حتى أتعلم كلام الأمراء؟!.
- إن لم تعلّمني ما ينبغي عليّ فعله، فسأسألها، عن ماذا أسالها؟!.
- هل تسأل امرأة عما ينبغي أن تفعله في ليلة العمر؟!.
- لا أدري ماذا أفعل؟!.
- كما لا أدري كيف أفعل؟!.

كانت الغرفة غريبة عليها؛ لم تعتدها؛ في الزريبة -حيث الغنم- يمكن التفاعل مع الحياة بصورة أفضل؛ التبن يحك الجسد، أما هنا، فماذا يحصل؟!

صحيح أن هناك كرسيا عريضا وطويلا بعض الشيء؛ تم إجلاسها عليه، لكن أي كرسيّ هذا؟!.

صحيح أن الجالس عليه لا يسقط على الأرض، لكن كأنه ليس كرسيا، كأنه لا يوجد به شيء؛ هذه الأشياء التي ألمسها؛ توشك ألا تبدو ليديَّ، لولا أنها

ملوّنة، لما بدت للناظرين؛ آه ليت عبدان كان معي ينظر ما أنظر، ويرى ما أرى، إنه لا يمكن أن يحلم بليلة مثل هذه؛ كم قنديلا في الغرفة؟!.

- لا أستطيع عدها، إنها غرفة غريبة؛ أتكون لاثنين فقط؟!.
- لعلها أكبر من الإسطبل، فكيف بمكان الغنم؟!.
- هل يوجد كل هذا الكم من المصابيح في الدنيا؟!.

أنا لم أرَ مصباحا أقوى من مصباح الشمس، ولا مصباحا أحلى من مصباح القمر؛ غير عبدان؛ هيه، إنه أسود من الليل البهيم، لكنه أجمل من القمر المنير، وأقوى من الأسد الهصور؛ أيّ أسد يجرؤ على مهاجمة غنمي وهو موجود؟!.

لم أجده مريضا إلا مرة واحدة، فلما رآني، هبّ مثل الريح العاصفة، واستقبلني بحب كان أشدّ حرارة من حرارة جسده المحموم؛ هيه يا عبدان؛ يا أيها الليث المحب؛ مَن هذا الأمير الذي سيقطف زهرتي قبلك؟!.

- ما أشقاني بك، وما أشقاك بي؟!.
- بقيت سادرة في تفكيرها الذي لم يصرفها عنه غير طرقة خفيفة على الباب؛ ماذا يمكنها أن تفعل؟!.

نهضت واقفة؛ لم تتكلّم؛ توقّعت دخول الأمير، ستستقبله بكل أدب، ستقبل يده وقدمه كما علّمتها الماشطة، ستعلن عن فرحها بأمر سموّ الأمير؛ هي خادمة لسموّه طول عمرها؛ كانت خادمة له، وهي خادمة له، وستبقى خادمة له إلى الأبد، لكن الأمير لم يدخل؛ هل الأمير محتاج لإذن كي يدخل عليها؟!.

- وسمعت طرقة رقيقة على الباب، لكنها أقوى بعض الشيء؛ ماذا يمكن أن يقال في مثل هذا الحال؟!.
- وانطلق من فمها شيء غير مفهوم، ونادت مَن على الباب: (أأستطيع الدخول يا سيدتي؟!)؛ ماذا؟!.
- مَن هذه التي تستأذنها؟!.
- ومَن هذه التي تنعت امرأة ما بسيدتها؟!.
- مَن سيدتها هذه؟!.

وصدر منها صوت ما، فأنفتح الباب؛ كان له صرير رقيق، كأنه ناي عبدان، وسألت مَن فتحت الباب فتحة ضيّقة: أأستطيع الدخول يا سيدتي؟!.

وصدرت من رأسها حركة خفيفة؛ فهمت منها التي على الباب أنها تأذن لها بالدخول، دخلت، وعلى يديها صينية كبيرة؛ فيها من الأطعمة المقلية والمشوية، وما لا تدري ما هو، شيء لا يُصدَّق؛ كشفت عن مائدة لا تدري ما هي الصور المرسومة عليها، كما لا تعرف أنواع الأوراد المصفوفة فوقها وتم تنضيد الطعام على المائدة؛ تلا ذلك مَن حملت الحلوى؛ أطباق وأطباق؛ مصفوفة بطريقة غريبة، وبأشكال عجيبة؛ تنفر منها أشياء لا تدري ما هي، وجاءت الفواكه، إنها لا تقول إنها لم ترَ هذا كله، بل لم ترَ شيئا من هذا، إنها لم تسمع بشيء منه؛ ما هذه العطور العجيبة التي لم يشمّها بشر، والتي حلّت الغرفة؟!.

- وسألتها الخادمات الحاملات للطعام والمنضدات له عما إذا كان هناك شيء ناقص؛ ماذا يمكنها أن تقول؟!.
- ما هو الموجود حتى تعرف الناقص؟!.

لم تتكلّم، لكن ندّت منها حشرجة صوت؛ نبهت المنضدة؛ على أنه ليس على المائدة ماء، وحضر الماء فورا؛ كانت الدوارق التي تحمل الماء من الرقة والشفافية بحيث توشك ألا ترى؛ هل الماء في إناء؟!.

الماء واقف بلا إناء، فقط هناك رسوم أزهار وأنوار قرب الماء الواقف في الهواء؛ هل يمكن أن يقف الماء هكذا بلا إناء؟!.

صدر صوت عن شيء وضعته الجواري والخادمات على المنضدة؛ كانت وردة رائعة الجمال؛ تقف بعيدا عن المنضدة؛ كيف تستطيع هذه الوردة الجميلة؛ الوقوف في الهواء بلا ساق يسندها؟!.

سبحان الله الذي رفع السماء بغير عمد، واستأذنت البنات بالخروج؛ صحيح أنهن كُنّ َ خادمات مستجيبات للأوامر، لكنهن كُنَّ ينظرْنَ إليها بحسد شديد؛ ما راعية الغنم هذه؛ التي تسامر الأمير الخطير؟!.

لكنها حظوظ؛ الله يعطي الجوز لمن لا أسنان له؛ هذا ما كانت العيون تقوله، أما الألسنة، فكانت تقول ما وراء القلوب، بالنفاق المعهود.

- الظمأ؛ كاد يقتلها، وهذا الماء؟ واقف في الهواء؛ هل تستطيع أن تشرب شيئا منه؟!.
- بماذا تشرب؟!.
- وماذا لو انسكب؟!.
- لماذا لم تأمر البنات، أن يعطينها قليلا من الماء؟!.
- هل تشرب جارية الأمير الماء؛ قبل أن يقربها؟!.
- ماذا لو قامت لترى الماء فوق المائدة، ثم انسكب الماء؟!.

- وماذا لو قامت من المكان الذي أقعدتها به الماشطة، ثم جاء الأمير؟!.
- وماذا لو جاء الأمير، وهي على هذا الحال من الظمأ؟!.
- إذا لم تستطع أن تأمر الجواري بشيء، أفتأمر الأمير؟! .
- هل تموت الليلة عطشا والماء على المائدة؟!.
- أين عبدان لينقذها مما هي فيه؟!.
- أيعرف عبدان الخروج من هذه الورطة؟!.
- وهل يوجد شيء لا يعرفه عبدان؟!.
- آه من عبدان!.
- كم تمنيت لو يرى هذه الغرفة؟!.
- لكن هل يحتمل أن يراني مع غيره؟!.
- إنه غيور، إنه كالليث الهصور، لكن ماذا يفعل للأمير؟!.
- إنه ولي الأمر المطاع.

كانت ظامئة فعلا، وكانت ميتة من الجوع، حين أخذها الأمير إلى السرير؛ خبز الشعير وشربة ماء؛ خير من ليلة في فراش الأمير؛ مع الجوع والعطش، لكن ماذا تفعل لولي الأمر؟!.

إنه إن أكل أكلت، وإن شرب شربت، وما دام لم يأكل ولم يشرب، فلا طعام لها ولا شراب؛ أين هذا من حالها مع عبدان؟!.

لقد كانت تأكل إذا جاعت ومعها متاع، وإذا ظمئت، شربت ولو مع الخراف؛ المهم أنها تأكل إذا جاعت، وتشرب إذا ظمئت، أما هنا، فمصيبة؛ كل

شيء موجود، لكنه غير قابل للاستعمال، هي أيضا؛ بقيت مع الأمير ساعة أو تزيد؛ دون ما كلمة؛ أهكذا يرافق الأمير نساءه؟!.

- أهكذا يعاشرهن؟!.
- كيف يرضين منه ذلك؟!.
- ومرّ وقت آخر لم تدرِ كم؛ كان جسدها يصرخ؛ ينادي؛ يطلب ما تريده امرأة من رجل في ليلة العمر، لكن ماذا يمكنها أن تقول له؟!.
- كيف يمكنها أن تحدث ولي الأمر الذي كان يتقلب مثل السليم؟!.
- وبسذاجة عفويتها التي كانت تتعامل بها مع عبدان؛ سألت الأمير: ما لك لا تحسن المنام؟!.
- أيوجد ما يؤرقك؟!.

أنا متعبة من عمل النهار، ومن ربكة الماشطة، وأحسّ بالنعاس، وأنت لا تسمح لي بالمنام، فحركتك عنيفة؛ أعنف من حركة الخراف، وتبسّم الأمير ضاحكا من قولها: (أترين منامك مع الخراف؛ أفضل من هذا المنام؟!)، (بالطبع يا أمير، إنها تأتي من المرعى متعبة، وقد شبعت من العشب والماء، فلا يكون لها إلا أن تنام، إنها لا تقلق مَن معها في المكان)؛ (يا سلام؛ النوم مع الغنم؛ أفضل من النوم معي)؛ أما في المرعى، فما أجمل النوم في العشب وبين الزهور! الغنم لا تنام هناك، إنها منشغلة بالأكل والشرب، أما الرعاة، فهم الذين يتمتعون بمثل هذا المنام، إنهم يشمّون عطور الزهور، ويستمعون إلى أصوات الطيور والنايات المتدفقة؛ من أماكن مختلفة؛ ما أشدّ ما تشدو به الطيور والنايات! وما أشجى هديلها وأنينها! إنها تدخل الآذان بنعومة لا تقلّ عن نعومة لمس الأزهار أو تدفق عطرها على الأنوف؛ آه ما أجمل هذا؟!.

ما لك لا تستطيع المنام، كأنك سليم؟!؛ (هي مشكلة كبيرة؛ لم أتمكّن من حلها، أتستطيعين أن تجدي لها حلاّ؟!)، ومَن يدري؟!.

قد يجعل الله سره في أضعف خلقه، إذا كنتم لا تعرفون حلول المشكلات، فلعلي أعرف، وإذا عرفتُ، فهل أجد عندكم شربة ماء أو قطعة خبز؟!.

إن الحياة عندكم لا تُطاق، يقف الماء بلا إناء، والطعام يأتي وليس معه قطعة خبز؛ أيّ حياة هذه التي تعيشونها؟!؛ هذه هي الإنسانة البسيطة التي يأكل الإنسان على جبينها الخبز، ما أشدّ براءتها وما أقلَّ مؤونتها على الناس؟!.

(ماذا تريدين إذا حللت المشكلة)؟!؛ ما هي المشكلة؟!.

مشكلتكم أنكم تقتلون أنفسكم جوعا وعطشا؛ أنا لم أعِشْ في حياتي يوما جعتُ فيه مثل هذا الجوع، ولا عطشتُ مثل هذا العطش؛ (أصحيح أنك جائعة ظامئة)؟!؛ (هل ينبغي لي أن أقسم بالله على أني جائعة ظامئة، إني جائعة؟!)، وضحك الأمير من أسلوب هذه الفتاة الذي لم يعتده؛ أيوجد إنسان بهذه السذاجة والبراءة؟! .

(قومي أسقك كأس ماء)، وقامت متثاقلة وهي تنظر ما الذي سيحدث؛ من أين سيأتي بالماء، ورأت يد الأمير تمتد إلى إناء الماء؛ يمسكه من أحد أطرافه؛ ويأخذ الوردة المعلّقة في الهواء بيده الأخرى ويحاول أن يسكب قليلا من الماء الذي في الإناء؛ على هذه الوردة؛ عجيب؛ الماء لا ينسكب؛ كيف نزل جزء من الماء الواقف في الهواء؛ على هذه الوردة المعلّقة في الهواء؟!.

أأنت أمير أم ساحر؟!.

عجيب ما يجري في القصور؛ لأول مرة في حياة الأمير؛ يفعل لأحد شيئا؛ صحيح أنه كان مضطرب النفس قلق البال، لكنه ضحك من هذه الفتاة بعض الشيء، كما أنه لحظ على نفسه شيئا غريبا، إنه يخدم هذه الفتاة الهبلة؟!.

إنه ينتبه إلى أنها ليست شعثاء ورهاء، لقد كانت جميلة فعلا؛ حلوة الحديث؛ يمكن الضحك منها أو معها، إنها ظريفة؛ أحسّ معها -لأول مرة- بالجوع، وبأن للطعام نكهة، بل وبأن له لذة؛ لم ترفع قطعة من قطع اللحم الكثيرة الموضوعة على المائدة، فلما سألها عن السبب؛ تبيّن أنها لم تجد خبزا، فهل يمكن أن يؤكل اللحم بدون خبز؟!.

ثم أن كمية اللحم كثيرة، وقطعه كبيرة، فهل يمكن أكل كل هذه القطعة من اللحم؟!.

هذه قطعة لحم تكفي عائلة كبيرة؛ هذه قطعة لحم لا يأكلها إلا أمير، وحين تنبهت إلى أنه أمير؛ تنبهت كذلك؛ إلى أنها ليست أميرة، إنها لم تأكل في حياتها كلها؛ كمية من اللحم تساوي هذه القطعة التي قدمها لها الأمير؛ في هذه اللحظات؛ بدأت ليلة الأمير؛ لم تكن للطعام نكهة جديدة فحسب، ولا كانت للماء لذته الغريبة، لكن الليلة نفسها غريبة؛ بريئة، ليس فيها خوف، ولا تصنّع؛ هل هكذا يعيش الفقراء؛ في راحة بال وطمأنينة؟!.

- لِمَ لا؟!.
- ما الذي يمنعهم من الحياة السعيدة، وإن لم تكن رخية؟!.

إنها حياة بسيطة، لا تآمر فيها ولا خوف على مال يسرق أو عمارة تغرق أو إمارة تؤخذ، إنها حياة بلا خوف ولا أمل، (أصحيح أنك كنت تعيشين بلا

خوف وبلا أمل؟!)؛ (كلا، لقد كنت أخاف شيخ الرعيان، وآمل أن يتزوّجني أحد العبيد؛ كيف لا أخاف ولا آمل؟!)، (ومَن هو العبد الذي كنتِ تودين الزواج منه؟!) لأول مرة في حياتها تفكر، فترى أن هذا أمير؛ قد يغار من عبدان، فيأمر بحبسه بل بقتله؛ ما الذي جناه المسكين؟!.

- وما الذي رآه في حياته؟!.
- هي ابتلاها الله بهذا الأمير، فما لها تبلو عبدان به؟!.

(أيّ عبد من العبيد، ومَن الذي يتزوج راعية غنم غير راعي غنم أو عبد من العبيد؟!)؛ (ألم تحلمي أن يتزوّجك أمير؟!)؛ (لا)، (لماذا؟!)؛ (لا أدري، ولكن المؤكد أن نساء الأمراء غيرنا؛ يملكنَ ما لا نملك)؛ (ماذا يملكنَ أكثر مما تملكين؟!)؛ (لا أدري، لعله الحظ، لعله شيء آخر؛ مَن يدري؟!)؛ (هل تعرفين المشكلة التي تشغلني؟!)؛ (لا)؛ (أتريدين معرفتها؟!)، وهزّت رأسها ثم عقبت قائلة: (لأعرفْ مشاكل الأمراء)، وضحك الأمير من كل قلبه، وعرض عليها الأمر؛ شخص له ما للرجال، وله ما للنساء؛ مات أبوه، وله مال كثير، وأولاد وبنات، فكيف يقسمون الإرث؟!.

(هذه قضية لها شبيه؛ مرّت بأحد العرافين، وقد حلّتها له جارية حمقاء)، (فماذا قالت له؟!)؛ قالت له:- (أجلسوا هذا الشخص إذا أراد أن يبول، فإذا بال من حيث تبول النساء، فهو امرأة، وإذا بال من حيث يبول الرجال، فهو رجل، ويرث على أساس مباله، لكنني أقترح عليك أن تسأل طبيبا)، (وماذا يستطيع الطبيب أن يقول أكثر مما قلتِ؟!)، (لا أدري، ولكنهم يقولون أن الأطباء مثقفون)؛ (دعينا من المثقفين، فلم يخرّب علينا أمرنا إلا المثقفون)،

وفرح الأمير بما سمع، ورأى أن الأمر محلول، وأن له أن يحتفظ بهذه الفتاة في قصره، فإن الله قد يجعل سره في أضعف خلقه.

وقضى ليلة لا أجمل ولا أكمل ولا أحلى؛ فتاة قوية، لكنها من عسل النحل؛ جميلة، لكنها غير مغرورة؛ مطاوعة مطواع؛ إذا نظر إليها سرّته وسرّت عنه، وإذا حدثها قالت ما يضحك النسيم، وإذا طالبها بما يطلب الرجل من المرأة؛ لم تمانع، ولا تعززت، لكنها تمنح بكل ما تستطيع؛ رفيقة رقيقة؛ غير متدلّعة، لا تطلب ما لا يطلب، ولا تريد ما لا يراد؛ في وقت لا يراد فيه إلا الحب الذي تمنحه بقوة، وبلا حدود.

حـــــل المشـــكلة

واجتمع الناس للاستماع إلى حل الأمير لهذه المعضلة؛ حضر الشخص وأخوته، وحضر الخلاف معهم، فالمال كثير، والمعضلة كبيرة، لم يسبق لهم أن سمعوا بمثلها؛ لم يرغب الأمير في أن يعرض المشكلة على طبيب مثقف، ليرى رأيه، فماذا يمكن للطبيب المثقف أن يقول أكثر مما قالت هذه الحسناء؟!.

ثم أن الحل له، ولن يباهي به مثقف عليه، كما لن يكون مثقف أعظم منه؛ اجتمع الناس، ونظروا إلى الأمير الذي رفع يده، فصمت الجميع، وقال: (إذا أحسّ بالحاجة إلى البول، فليخبرنا، وعند ذاك، سنبيّن الحل)، وضحك الجميع، فرفع الأمير يده مرة أخرى وتساءل عما إذا كان المطلوب العنب أم السلة؟ الحل أم شيء آخر؟!.

فكان الجواب هو الحل، فأمرهم بالانتظار حتى يحل وقت الحاجة إلى البول، وبدأ الحديث في أمر آخر، واستغرب الجميع هذا الأمر، لكن كلام الأمراء؛ أمير الكلام، فلا مجال لمناقشة الأمير، ولو كان ضعيفا حتى يسقط، ورفع الشخص يده يريد الذهاب إلى الغائط، فأمر الأمير طبيبين؛ يذهبان معه، ليريا من أين يبول؟!.

- أيبول من حيث مبال الذكر أم من حيث مبال الأنثى؟!.
- وأستغرب الناس هذا الحديث، فماذا يريد هذا الأمير الغرير من هذا؟!.
- وكيف ينظر رجلان إلى مبال امرأة لو كانت امرأة؟!.

وصار كثير من اللغط، وشاع كثير من الكلام، واختلف الناس بين من يريد أن يكون مع الشخص طبيبان رجلان ينظران إلى مباله، وبين من يريد أن تكون

معه طبيبتان امرأتان؛ تنظران إلى مباله، لكن المشكلة تبقى قائمة، فحين يكون رجلا وتنظر إليه امرأتان، فهذا حرام، وحرام كذلك أن ينظر إليه رجلان، إذا كان امرأة، فالمشكلة قائمة، ولو عرفوا جنسه، لما كانت هناك مشكلة، وتضاحك بعض الظرفاء، فاقترحوا أن يذهب مع الشخص رجل وامرأة، ليريا مباله، وانبرى المتزمتون ساخطين للرد على هذا المقترح الجامع للمحرمَين، واقترح آخرون أن ينظر إلى مباله اثنان من أخوته، فانبرى رافضا لهذا المقترح الذي سينتهي إلى أن يقول أخوته أنه امرأة، فيفوزوا بنصف حقه من الميراث، وصمت الكثيرون حتى يروا إلى أين تنتهي هذه المهزلة، ولم يلبث الطبيبان أن حضرا، وأخبرا الأمير أن هذا الشخص؛ يبول من حيث تبول النساء، فسأله الأمير عمّا إذا كان هذا الكلام صحيحا، فأيده، وقال أنه يبول من حيث تبول النساء، وهنا أصدر الأمير حكمه: (ما دام هذا الشخص؛ يملك ما تملكه النساء، كما يملك ما يملكه الرجال، ثم بال أمام طبيبين؛ تبين لهما أنه يبول من حيث تبول النساء، وأيد هو ذلك، فهو امرأة؛ ترث كما ترث النساء؛ انتهى قرار الحكم)، وشمل الصمت المكان، فما كان أحد يتوقّع مثل هذا الحكم الحكيم الذي نصّف أرث هذا الشخص الذي صاح أخوته: (يحيا العدل)، وصاح هو: هذا ظلم)، وحين استفسر الأمير منه عن سبب الظلم؛ أخبره أنه إن كان يراه امرأة، فقد منعه الزواج، لذلك، فهي تهبه نفسها، ولكن ماذا يحدث لو تحرك عندها ليلا ما يتحرّك لدى الرجال؟!، وأفحم الأمير، وطلب الإذن بليلة أخرى يتفكر فيها، وخرج من المجلس، وقد ضاقت الدنيا في عينيه؛ ما هذه المشكلات؟!.

- أيتفرّغ لقضايا القضاء أم يتفرغ لقضايا السلطان التي لا تنتهي؟!.
- إن الملء يتربصون به الدوائر، ويوشكون أن يسقطوه للسيطرة على إمارته كما سيطر المسيطرون على سواها؛ أهذه مشكلة؟!.
- لماذا لم يعرض الأمر على طبيب مثقف، فإذا ما أخطأ الطبيب المثقف الحل، وقع في المشكلة؟!.
- ميراثها كبير، ولو كانت امرأة، لحل ميراثها كل مشاكل الإمارة الاقتصادية، ولكن ماذا لو بدا أنه رجل؟!.
- مرة أخرى لا حل إلا عند هذه العبقرية، وكان غداؤه عندها، وأخبرها الخبر، لقد أوقعتني في حيص بيص؛ أي حل هذا الذي اقترحته عليّ؟!.

(لا عليك، لو عرضت الأمر على طبيب مثقف، وعرَّضْتَ له بالحل، لابتلى الطبيب بما ابتليت به، ولكن أنا موجودة؛ أنظره عدة امرأة، فإذا انتهت عدتي، ولم يكن في رحمي منك شيء، فهبني له، فإن كانت امرأة؛ لم أخسر بذلك شيئا، وطلبت الطلاق، فإذا تحرك فيه ما يتحرك لدى الرجال، فأنا امرأة، وأنا أقبل به حليلا؛ حلا لمشكلة الإمارة)، (وإن كان في رحمك مني شيء؟)؛ (لم نعدم أن نهبه امرأة أخرى وينتهي الموضوع على خير)، (فإن بدا بعد ذلك بادٍ؟!)؛ (كان لكل حادثة حديث، ولا تتعجّل الشر قبل وقوعه؛ المهم أن يتفرّغ العقل بعض الوقت، ويفعل الله ما يشاء)؛ أليست هذه أفضل من هذا الأحمق الذي رفض الوزارة، لمجرّد كونه مثقفا؟!.

ليأكل الثقافة بالخبز، وليتساءلوا عن سبب تهميش المثقفين.

ســـــاعـة صفـــــاء

حين انتهت تلك الجلسة؛ عاد الأمير –من قصر الإمارة– إلى قصره الذي يسكنه؛ منذ وقت طويل؛ لم يكن –في العادة– مرتاح النفس، أما اليوم، فهو – على غير عادته– مبتسم طروب؛ أحب أن يستثمر تلك الظهيرة؛ في البستان، بين الأشجار والأغصان؛ يداعب الزهور، ويشم العطور، يغمس يده في الماء الجاري في السواقي حيث تتمتّع المآقي، بهذا السحر الحلال؛ مع هذه الراعية للأمير بعد أن كانت راعية للغنم، آه؛ ما ألطفها!.

- **أكانت بهذا اللطف مع الغنم؟!.**

لو لم تكن بهذا اللطف؛ ما تمكنت من ملاطفته، فالطبع غير التطبع؛ هكذا يقولون، ولو لم تكن لطيفة فعلا، لبدا منها ما يدل على ذلك، كما يبدو من المتطبعات؛ اللائى يصوّرن معرفتهن بأصول التعامل مع الملوك والأمراء.

في طريقه إلى القصر؛ كان يتفكر في ما قالته له أمس؛ حلا لمشكلته مع هذه الخنثى:- (أيمكنني حقا أن أتخلى عنها لغيري إن كان رحمها خاليا بعد العدة؟!)، ما أن وصل القصر، حتى أمر بصرف الحرس إلى خارج القصر؛ يمارسون أعمالهم العادية، وأمر بتفريغ الحديقة كي يسامر فيها عروسه الجديدة؛ التي صارت موضع حسد زوجه القديمة؛ مع الأميرات وبنات الأمراء.

الوحيدة المتنبهة إلى عملها؛ هي الماشطة؛ كانت تشرف على تزويق زوجه القديمة وجميع الجواري اللاتي قد يطلب الأمير إحداهن، لكنها تعد الراعية، بنفسها؛ عندها شعور بأنها أصبحت الأقرب من قلب الأمير؛ صحيح أنها لا تعرف السبب، لكنها تعرف مراد القلب؛ خبرة طويلة؛ هناك مَن يتهم المزيِّنات

بما يتهمهن به، وهناك مَن يهاجم محلاتهن في (قرطبة)، فيقتلهن فيها لأنه يتصوّر أنهن يساعدْنَ الفواحش، أما هي والعاملات معها، فلا خوف عليهن من هؤلاء الذين قد يُطلقهم الأمير من المتسولين وغيرهم، ليثير بعض الخوف بين الناس أو ليشغل الناس عما هم فيه؛ المهم؛ أنها ومَن معها؛ في أمان، بل لقد وافقت بعض المزيِّنات البارعات؛ على العمل معها؛ تأخذ لهن من قصر الإمارة أجرا؛ يكون بعضه لها، لتشغيلها إياهن، وماذا يهم الأمير؟!.

المهم أن تكون نساؤه عرائس طول الوقت.

ونزلت الراعية -الأميرة- السلالم إلى البستان، وكأنها الحمامة يخفق لها جناحان؛ هي -اليوم- أبهى من أي يوم، لعلها أبهى من ليلة زفافها أو لعل عيون الرضى عن كل عيب كليلة، ليس هذا هو المهم؛ المهم أنها رائعة في نظره لطيب نفسه، ولتفتح مشاعره وأحاسيسه، في هذا اليوم الربيعي الرفيع الجمال.

سلّمت عليه؛ مشت نحوه مشي غزال؛ مشى إليها طلعة هلال العيد؛ كانت مبتهجة، أما هو، فسعيد، مشيا صامتين وابتسامتاهما؛ تنعكسان على مرآة الجدول الرقراق الذي مشيا بإزائه؛ مشت على يمينه؛ لمس يسراها كأنه لم يلمس قبل كف امرأة؛ وضعها في يمناه؛ مشيا وهو يحرّك كفها بهدوء المشوق في يمناه؛ (الجوّ جميل؛ الورد جميل؛ البستان جميل؛ كل شيء -اليوم- جميل وأنت أجمل)، ازدادت ابتسامتها اتساعا، وخدودها توردا، وتحركت حركة حمامة خجلى؛ ترجرج صدرها فرحا، لكنها لم تتكلم، ما كانت تعرف ماذا يمكن أن يقال، في مثل هذا المقام، ما كان لها أن تبدأه بغير السلام، لذلك، فقد مشيا صامتين، ورب صمت أبلغ من نطق، وكفها الأيسر يتحرّك برقة في يمناه؛ يشعرها بما لم تشعر به من قبل، لقد عرفت عبدان، لكنه لم يكن هكذا، ولم تكن ليلة زفافها

هكذا، إنه شيء جميل؛ جديد عليها؛ تمنت لو لم يتغيّر هذا الحال، ولكن أي حال لا يحول؟!.

- (ألم أكن راعية غنم أتجول في المراعي؟!.
- ألم أصبح اليوم؛ ما لست أدري، وأنا أتمشى في هذه الرياض بين الزهور والعطور، وكفي في كف أمير؟!.
- أليس هذا عجيبا؟!.
- أيمكن أن يدوم هذا الحال؟!.
- أيمكن أن أعود راعية للغنم في أحضان عبدان أو في أحضان غيره من الرعيان؟!.
- أيعقل أن تحتملني الأميرات من أخوات الأمير وبنات أعمامه وأخواله بينهن؟!.
- أيعقل أن تقبلني زوجه ضرة لها، والمرأة لا تقبل ضرة ولو كانت ابنتها؟!
- وماذا يمنع؟!.
- ألم تكن من المتسولات؟!.
- على الأقل؛ أنا لم أتسول، فقد كنت أعمل، وأبي –كذلك– كان معتدا بنفسه؛ كان عاملا، وهكذا حال أخوتي، ففيمَ هي أفضل منا؟!
- وجواريه ألا يفكرْنَ في التآمر عليّ مع أصدقائهن من وزرائه وشعرائه؟!
- أيرضين بأن تكون هذه الراعية الشعثاء الورهاء؛ محضية الأمير؟!

لكن:- (دع المقادير تجري في أعنتها) ولنتمتع بما نحن فيه الآن، فهكذا هي الجنان، بل سحر الجنان، فراعية الغنم بالأمس، هي راعية الأمير اليوم، ولكن أين هذا من مكاني في المراعي التي أألفها، وأألف فيها كل شيء؟!).

هنا قطع الأمير أفكارها بسؤاله:- (كيف أنت الآن؟)؛ يريد أن يبدأ معها كلاما ما؛ فكَّرتْ قليلا هزت رأسها بهدوء ثم قالت:- (أنا –يا مولاي- لا أدري كيف أنا الآن؛ لعلي في حلم؛ تتمنى الكثيرات أن يعشنه مكاني، فمن أسعد ممن تمشي على يمين أمير؛ يسراها في يمناه، يلعب بها كما لو كان يداعب قلبها؛ في هذه الرياض التي تحسدها الجنان؛ على ما فيها من نهر وطير وزهر وشجر مثمر، أما أنا، فلا أدري؛ أشعر شعور بدوية يحكون أنها تزوجت ملكا؛ أنا لا أعرف اسمها، ولا أعرف اسم الملك، فلما انتقلت إلى قصره؛ قالت شعرا طلقها على أثره؛ أنا لا أحفظ هذا الشعر، لكنني أشعر بشعورها)، وقاطعها الأمير قائلا:- (لعلها (ميسون ابنة بحدل)؛ أتحبين أن أنشدك شعرها؟!

لقد حفظناه عند الطلب؛ يوم كنا أطفالا)، وبينما كانت تبين له أنها تحب سماع شعر تلك الشاعرة البدوية، لترى ما إذا كانت مشاعرهما متقاربة أم لم تكن؛ كان هو يسخر من نفسه في نفسه؛ ضاحكا من ذاته، وهو يقول في قلبه:- من أنا؟!.

- ألست الأمير؟!.
- ومن هذه؟!.
- لتكن جارية من جواريَّ، لتكن محضية من محضياتي، لتكن زوجتي، أليس من واجبها أن تخدمني وتروح عني؟!.

- من الذي أطعم الآخر أمس؟!.
- ألم أطعمها؟!.
- ألم أعلمها كيف تأكل؟!.
- ألم أسقها الماء؟!.
- ألم أعلمها كيف تشرب الماء؟!.
- وبعد هذا كله، بعد أن صرت لها خادما؛ مطعما؛ ساقيا؛ معلما؛ أصبح لها راوية شعر؟!.

والله لقد هزلت، والله لقد هزلت، ويرفع صوته منشدا قول (ميسون بنت بحدل):-

لَبَيْتٌ تخفِقُ الأرواحُ فيه أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنيفِ
وأصواتُ الرياحِ بكل فَجٍّ أحبُّ إلي من نَقْرِ الدُّفوفِ
وبكْرٍ يتْبَعُ الأظْعانَ صَعْبٌ أحبُّ إلى من بَغْلٍ زَفُوفِ
وكلبٌ ينبح الطُّرَّاق عنّي أحبُّ إليَّ من قِطٍّ ألوفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتقَرُّ عيْني أحبُّ إليَّ من لِبْسِ الشُّفوفِ
وأكْلُ كُسَيْرَة في كِسْرِ بَيْتي أحبُّ إليَّ من أَكْلِ الرَّغيفِ
وخَرْقٍ مِن بني عمي نحيفِ أحبُّ إليَّ من عِلْجٍ عليفِ
خشونَةُ عِيشتي في البدْو أشهى إلى نفسي من العيشِ الظَّريفِ
فما أبْغي سوى وطني بديلا فحسبي ذاكَ من وطن شريف

فهل ترين بينك وبين (ميسون) من تشابه؟؛ (بيننا تشابه، وبيننا اختلاف، فنحن متشابهتان لأننا امرأتان بدويتان، ونحن مختلفتان لأنها –كما يبدو– من بنات الشيوخ أما أنا، فمن أنا؟!.

أنا لا أعدو أن أكون راعية غنم؛ تعدو بين الخراف والنعاج أو خلفها؛ صحيح أنني أداعبها؛ ألاعبها، لكنها عملي، والكلاب؛ مهمتها حراسة الغنم؛ أكثر من أن تحرسني، فأنا راعية الغنم والكلاب، أما هي، فتحلم بكلب ينبح الطراق عنها، أما أنا فأعرف كلابي، وأعرف نباحها، وأعرف نباح كل كلاب الرعيان الذين يكونون معي في المراعي حتى ذؤبان الصحراء؛ أعرفها حق المعرفة، وتعرفني مثل أهلي، لا يجرؤ واحد منها على مس غنمي أو الغنم القريبة مني بسوء)، ويقاطعها الأمير متسائلا:– (ولِمَ هذا؟!)؛ (يا مولاي الكريم؛ صدِّق ما أقوله أو لا تصدِّق، فقد دربتني على رعاية الغنم؛ جارة لبيتنا أكبر مني سنا، وأعرف مني بشؤون الغنم ورعايتها، فكانت ترشدني إلى المرعى النبيل، وتدعوني إلى أخذ الغنم له، وتدلني على المرعى الوبيل، وتمنعني من أخذ الغنم إليه، ودربتني على رعاية الغنم ومرافقة الكلاب؛ أسبوعا أو يزيد؛ تعاملت معها ومع الغنم وكلاب الحراسة معاملة المحبة الودود، فجربتني، وأرسلتني وحدي مع الغنم، وكانت تفكر في أن تتبعني إذا ارتفعت الشمس، لترى ماذا فعلت، وما أن خرجت إلى المرعى، حتى هالني ما رأيت؛ رأيت أسدا هصورا كبيرا؛ قد أقعى على ساقيه الخلفيتين، وكان يرفع يده اليمنى كالمستغيث، وكان يرنوا إليّ بتوسل المتألم، فكانت نفسي بين الخوف وحب عمل الخير؛ تعتصرني، ما لهذا الأسد الهصور يتوسل؟!.

أيتوسل الأسد؟!.

أيتألم الأسد؟!.

وانتهيت إلى أن أبعد القطيع بعض البعد، لكنه تحت نظري، وأمرت الكلاب بالهدوء، فأحاطت الغنم، وعدت إلى الأسد، فوجدته على حاله، واقتربت منه قليلا قليلا، فلم يتحرك، ووصلت إليه، ونظرت إلى يده المرفوعة، فوجدت فيها شوكة كبيرة؛ عالجت إخراجها بهدوء، كما كانت تفعل أمي إذا أصابت أحدنا شوكة، وما أن عالجت الشوكة، فخرجت، حتى خرج بعدها شيء من الدم الفاسد؛ تلاه دم أحمر؛ خفت على الأسد من أن ينزف كثيرا فيموت فشققت ثوبي من أسفل وشددت يد الأسد، وأراد الوقوف، فصعب عليه، فساعدته على القيام، فلما قام، هز برأسه وكأنه يشكرني، وما أن قام الأسد حتى جاءت جارتي، فرأتني أقف مع الأسد، أو رأت الأسد وهو يمشي كأنه كلب أليف، فعنفتني وتساءلت عما دفعني إلى ترك الغنم، والوقوف إلى جانب الأسد، وأخبرتها الخبر، لكنها لم تقتنع بما فعلت، وأخبرتني أن الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – قد نجاني من هذا الوحش، وأن عليَّ أن أبتعد عن مثل هذا العمل؛ في مستقبل حياتي، وانتهى ذلك اليوم الغريب، وانتشر خبره بين الرعيان، فكان هناك من يتعجب من فعلي، ومن يشعر بأنني مغامرة؛ يخاف من مغامراتها على الغنم، وبقيت أرعى الأغنام يومين أو ثلاثة أيام؛ في عصر أحد الأيام جاءني ذلك الأسد؛ وراءه لبوة وشبلان؛ اقترب مني؛ خفت منه، لكنه لم يكن مخيفا؛ قرَّب لبدته من يدي اليمنى وحكها بها كأنه يشكرني، وكذلك

فعلت اللبوة، وكذلك فعل الشبلان، فكانوا من أصدقائي الدائمين؛ في الأيام الأولى؛ كان الرعيان؛ يخافونهم، ولا يقتربون مني ومنهم، لكنهم فهموا –فيما بعد- أنهم لا يخيفون، أنهم ليسوا متوحشين، أنهم أليفون، لا يختلفون عن كلاب الحراسة؛ كثيرا ما كانوا يحرسونني، ويحرسون غنمي وكلابي من ذئاب الصحراء التي ألفني بعضها، وعافني بعضها الآخر، فلم يعد يصل إليّ، وكثيرا ما كانت السماء تمطر أو تشتد حرارة الشمس حتى لا أحتمل ذلك، فأحتمي من مطر السماء أو من حرارة الشمس بعرين الأسد الذي طالما كنت أزوره بلا خوف وبلا وجل، بالعكس كان الأسد وأسرته يرحبون بي، ويحتفون بلقاءي، وكثيرا ما كانوا يحكّون لبدهم بيدي ويلحسون بألسنتهم رجليَّ الحافيتين، فكنت عجيبة من عجائب الرعيان، لا يدرون لماذا أخالفهم بالخروج، ولا يعلمون لماذا لا تسرق الوحوش من غنمي خروفا أو نعجة)؛ (أيعقل هذا؟!)، (ويعقل ما هو أشد من هذا بعدا عما يسميه الحضر بالعقل، فلم أكن أعرف الأسود واللبوات والأشبال والذؤبان –وما إلى ذلك- وحدها، بل كنت أعرف الكثير من مطاريد السلطة، إنهم يأتون إليّ، لأنني أكون وحدي مع الغنم في المرعى غالبا، لذلك يشترون مني الخروف أو الخروفين، كما أحتلب لهم بعض النعاج، فأبيعهم حليبها)؛ (هذا مستحيل)؛ لماذا هو مستحيل؟!.

ما المستحيل فيه؟!؛ (إنهم لصوص؛ قطاع طريق؛ خارجون على القانون؛ أعداء للشرع؛ أعداء للدولة، فكيف يشترون منك الخروف والخروفين، ويدفعون لك ثمن الحليب الذي تبيعينه لهم ثم لا يختطفونك وغنمك، وأنت وحدك؟!)؛ (لا أدري، أنا أروي لك ما أعرف، أما أنتم، فلا تعرفون ما أعرف،

كما لا أعرف ما تعرفون، فلو عرفت شيئا من معارفكم، ولو عرفتم شيئا من معارفي، لا أدري ما الذي سيحصل)؛ (من تعرفين من قطاع الطرق في المناطق المحيطة بـ(قرطبة)؟!)؛ (أنا لا عرف أحدا من قطاع الطرق، فهؤلاء بعيدون عن الناس، وهم لصوص مكروهون في البدو والحضر، أما الذين أعرفهم، فهم قوم يقولون أنهم فارون من الظلم؛ يكرهون الفساد السائد في المدن، ويعترضون على الرشا التي يأخذها لا أدري من؛ هم يتحدثون عمن أجبر على ترك بيته أو فرضت عليه الهجرة من بلده أو أخذت أخته أو زوجه رهينة بدلا عنه فجرى لها –في السجون– ما لا يجري للنساء الحرائر؛ ناهيك عن استصفاء الأموال وربما استصفاء الدماء)، وتفكر الأمير في الأمر:– (أيمكن أن تمثل هذه المرأة؛ حلا لإحدى مشاكل الإمارة؟!.

هل تستطيع أن تخلصنا من مشكلة المتمردين الخارجين على القانون)؛ هنا سألها:– (أتستطيعين الوصول إلى هؤلاء الناس الذين تتحدثين عنهم؟)؛ (أستطيع الوصول إليهم متى شئت، والتحدث معهم عما أحب)؛ (كيف يمكنك الوصول إليهم والتحدث معهم وأنت في ملك الأمير، وهم من أعدائه؟!)؛ (أما أني من ملك الأمير، فكلنا ملك الأمير ورعاياه، وهم – كذلك– من ملك الأمير ورعاياه، ولم أسمعهم مرة يذكرون الأمير بسوء، ولا يتحدثون عن (قرطبة) بشر؛ هم –فقط– يذمون المرتشين، وينتقدون الفاسدين الذين يسيئون تطبيق القانون، ويكرِّهون الناس في الشرع الحنيف)؛ (إذن فأنت تستطيعين الوصول إليهم، والتحدث معهم، فهل تستطيعين أن تطلبي إلى كبيرهم أن يزور الأمير، ليخبره بما يدفعهم للخروج على القانون؟)، (أنا

أستطيع الذهاب إليهم، ولكن بغير هذه الثياب، وأستطيع التحدث معهم، وإخبارهم بطلب الأمير، لكنهم يخافون السلطة، فهل من وسيلة؛ تقنعهم بأن الأمير يريد واحدا منهم لمحادثته ومعرفة ما يريد؟)؛ (أستطيع أن أثبت لهم حسن نيتي بثلاث وسائل الأولى أني أضعك بين أيديهم، وهذا خطر كبير عليكِ، والثانية أنني أستطيع أن أضع في يدك خاتم الأمان؛ تعرضينه عليهم، ومعه الثالثة، وهي كتاب أمان صادر عن الأمير شخصيا، ليس فيه اسم؛ هم يضعون فيه اسم كبيرهم، ليحمله ويحضر معكِ إلى القصر، فهل هذا بمقدورك؟!)؛ (هو ممكن بإذن الله تعالى).

قـــــلق الأمـــــير

في قلق شديد؛ كان الأمير يقطع القاعة البسيطة التأثيث؛ جيئة وذهابا؛ كان يسرع في مشيه أو يبطئ؛ يقوم أو يقعد؛ كانت يداه تتحركان بصورة غير منتظمة؛ تعبيرا عن قلقه؛ قد يحك بإحدى يديه وجهه، وقد يحك بالثانية رأسه أو رجله؛ قد يضع إحداهما على صدره، وقد يضع إحداهما على الأخرى فوق صدره؛ ماشيا أو قاعدا؛ كان يفكر في هذا الفعل الغبي الذي مارسه:- (كيف يرسل رجل حر عاقل؛ زوجه –أيا كانت شجاعتها- إلى أعدائه وقد رفض تسليمها إلى خنثى، لو بدا رحمها بريئا بعد عدة النساء؟!.

- كيف وافقْتُ على أن تعود إلى لباس الرعيان، فتسوق قطيعا من الخرفان؛ إلى تلك الآكام الخطرة؟!.
- من يضمن أنهم سيقتربون منها لتحدثهم بما أريد؟!.
- ولو اقتربوا منها، وعلموا أنها مرسلة من قبلي، فما الذي يمكن أن يحدث لها؟!.
- ألا يحتمل أن يخطفوها، ويفعلوا بها ما تفعله الشرطة بنسائهم من أهوال؟!.
- ما الذي سأستطيع فعله عند ذاك؟!.

لو كان بمقدوري أن أوجه إليهم الجيش والشرطة لاستنقاذها، لفعلت ذلك قبل أن تصل إليهم، ولكنهم أقوى من الجيش والشرطة؛ على قلة عددهم، وسوء تسليحهم؛ قياسا إلى قواتي المتفككة.

- **ثم ما الذي يحدث لو كانت منهم، وقد فازت بقلبي، وتمكنت مني، ومكنتهم من جانب من جوانب الدولة، كما فعلت المتسولة؟!.**

لا أظنها كذلك، هي أبسط من أن تفعل ذلك؛ كان أهلها من رعاة الأمير؛ منذ وقت طويل، فلما صارت إلى ما صارت إليه، لم يتغير حالهم كما حدث للمتسولين، ولم تطلب لنفسها شيئا، فكيف تطلب لأهلها أو لغيرهم؟!

لكن من يدري؟!.

لعلها أذكى بكثير؛ من هذه المتسولة المغرورة، فقد أخذت –في صفقة واحدة– خاتم الأمان، وكتابا للأمان؛ تستطيع أن تدخل بهما جيشا –بكامل سلاحه– إلى (قرطبة)، لكنها لن تفعل ذلك، قلبي يقول لي:– (لن تفعل ذلك) ولم يخُنّي قلبي قط.

- كيف لم يخني قلبي؟!.
- كم مرة كذبني في ما تصور؟!.
- كم مرة انخدع بما لا ينخدع به عاقل؟!.

لولا انخداع قلبي بحلو حديث المتسولة، لما كان للمتسولين هذه الصولة والطولة؛ في الدولة، ولولا انخداع قلبي بخدع القوم وأكاذيبهم، لما تفكك الجيش، وفسدت الشرطة، وضاعت من يدي السلطة، كم هم الرجال والنساء الذين لا أثق بهم، وهم يتجولون في القصر، ويتمولون من أموال الدولة؟!.

كم هم الجواسيس الذين يتسللون إلى مرافق الدولة، بل يتسلطون عليها، ولا أحد يقف لهم بالمرصاد، ولا أحد يخيفهم، بل لعل بعضهم مسؤول عن

محاربة الجواسيس ووقف نشاطاتهم في البلاد، وهذه المرأة المتغافلة –التي أظنها مغفلة– ماذا لو كانت من جواسيس الأعداء الداخليين أو الخارجيين؟!.

كيف ساعدتها –بحمق– على لباس ثياب الرعيان، وأطلقتها مع قطيع الخرفان من الباب السري للقصر؟!.

لقد عرفت هذا السر، وستعود من باب معروف؛ مع من قد يأتي معها من المتمردين، وقد لا تعود، وفي الحالتين كلتيهما؛ هي تعرف الباب السري للقصر، وتستطيع –أو تستطيع جماعتها– أن تقطع طريق الفرار عليَّ لو حزبني حازب، وفرض عليَّ الفرار شيء، لقد جازى الأمير الوالد المهندس والعمال الذين ساهموا في بناء هذا الركن السري من القصر؛ جزاء (سنمار)، حينما غيبهم عن أهلهم، فقتلهم، ولم يعلم بذلك أحد، فهل نجازيها الجزاء نفسه؛ حفاظا على سرية هذا الركن من القصر؟!.

– وماذا يفيد قتلها إذا كانت ستبلغ المتمردين به؛ قبل أن تعود؟!.

لكن عاقلة مثلها، ستتوقع وجود أكثر من باب سري للقصر، فلا تفكر في قطع الطريق عليَّ؛ وقت الحاجة.

إن المشكلة تكمن في عدم وجود باب سري آخر للقصر، فقطع الطريق عليَّ مصيبة حقيقية.

– لماذا لم يبني الأمير الوالد المرحوم؛ أكثر من باب سري للقصر؟!.

– لعله لم يفعل ذلك، لأنه لم يتوقع أن يكون له ولد غبي مثلي.

– آه ماذا أفعل.

– سأموت خوفا منها، وأنا أموت في حبها، فأي الموتين أحرى بي؟!.

– وأي الموتين أحرى بها؟!.

– وما هي مشاعرها الآن؟!.

لقد كانت بهجتها –وهي تغادر الباب السري للقصر– أشد من بهجة حمامة سجينة في قفص، أفتعود إلى هذا القصر القفص أم تتركني وحدي فيه؛ أعاني الغربة والوحدة والشقاء؟)، وبقي الأمير على هذه الحال؛ يتقلب في نيران القلق، بين الخوف عليها والخوف منها، والأمل فيها وفي ما تصنعه، فهي عاقلة كاملة؛ على ما يبدو من جهلها وسذاجتها.

فـــــرحة الـــــراعيــة

كان الفرح يتقافز في عينيها الواسعتين، ويبدو في كلامها وعلى حركاتها، وهي تنظر إلى ملابس الرعيان التي تلبسها بمساعدة الأمير.

وحين رأت أصدقاءها من الغنم وكلاب الحراسة؛ كان شعور مشترك بالبهجة؛ يتسرب من أحدهما إلى الآخر، فكما كانت الأغنام والكلاب تتقافز مسرورة أمامها وبين يديها وحولها؛ كانت هي ترقص سعادة بينها مثل زهرة برية؛ تعيش في روض أريج.

كان الأمير يرى ذلك، ويعجب منه إذ لم يرَ مثله من قبل:- (أهكذا يألف الحيوان الإنسان؟!)، (وهكذا يألف الإنسان الحيوان)، وينطلق الأمير بها وبمرافقيها من الحيوانات؛ إلى الباب السري للقصر حيث ينطلقون منه، وعلى فمها ابتسامة أمل، وعلى وجهه سحابة قلق.

في المراعي الخضراء؛ عادت إليها نفسها، وتحررت من هذا الذي لم تحببه في القصر، وتمنت على الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أن يتيح لها -بسرعة- أمرين مهمين؛ أحدهما أن ترى صديقها الأسد وعائلته الطيبة، وثانيهما أن ترى أصحابها الذين كانوا يشترون منها الخراف والحليب، وأن تكون مهمتها معهم سهلة، فقد يكون من الصعب؛ إقناعهم بلقاء الأمير، فهم يحبون الأمير، ويتمنون زيارة (قرطبة)، لكنهم يخافون السلطة، فهل يثقون بها؟!

- وهل يصدقون أمان الأمير؟!
- وهل يُعقل أن يكذب الأمير؟!

(هؤلاء قوم؛ أمرهم عجيب، وأنا لا أعرف مشاكلهم، كما لا أعرف طريقة حلها، لكن الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- معي، وسييسر لي كل عسير)، في هذه اللحظة؛ استجاب الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- لأولى دعوتيها، فقد صفقت بيديها وقفزت على رجليها؛ راكضة تستقبل الأسد الذي جاء يتمشى متبخترا؛ يقود عائلته السعيدة، ما أن وصلت إليه ووقفت بجانبه حتى بدا منكسر القلب، لا يريد أن يحك يدها بلبدته، فقد انقطعت عن المرعى زمنا، ولو تمكنت حشائش المرعى وأعشابها وزهورها من التعبير عما يجيش في نفوسها، لما أختلف رأيها عن رأي الأسد وعائلته، ومدت يدها إلى لبدة الأسد فمسحت عليها، وربتت على كتفيه وقبَّلته من رأسه، فبدا راضيا بعض الرضى، ومسحت على ظهره، فأناخ كما لو ينيخ بعير، فارتحلته، فقام، فمشى بطيئا، وتقدمت لبوته للسلام عليها ثم تتابع الأشبال؛ متبخترين راقصين، بكثير من الدلال، فكانت تتحرك نحوهم؛ مرتحلة الأسد مرة، وماشية مرة أخرى، وهكذا كانت البهجة تشيع في المرعى، لوجود الفتاة الطيبة القلب التي لم تفرح بها الكباش والكلاب وحدها، بل فرحت بها أسد الصحراء وأعشاب المرعى وأنسامها العليلة، ومياهها الجذلى الباردة الجميلة.

أقعى بعض العائلة الأسَدية؛ قرب الكباش والكلاب، وأناخ بعضها الآخر، وجلست الفتاة بين أفراد هذه العائلة اللطيفة؛ على العشب الأخضر الرطيب؛ وبين الأزهار البرية التي تتراقص مع النسيم العذب؛ عازفة سمفونية من الألوان الجميلة، والعطور العابقة في الجو البهيج؛ تملأ الهواء الذي تتنفسه هذه الجماعة المنسجمة.

كانت الفتاة تمازح الأسد أو تضاحك اللبوة أو تداعب واحدا أو أكثر من الأشبال التي تقترب منها أو تفر، كأنها أطفال ترفل بالحبور؛ تزأر أو تتعلم الزئير؛ تشعرها بقدراتها الجديدة التي لم تكن قد رأتها من قبل، والجميع في هناءة يغبط عليها لا يسهل تحقيقها في أفخم القصور وأعلى الدور.

في هذا الوقت؛ رأت الفتاةَ جماعةٌ ممن اعتادت التعامل معها في شراء الأغنام والحليب؛ هم الآخرون؛ كانوا فرحين بعودتها للمرعى؛ صفقوا فرحين بعودتها، وجروا إليها مرحين:- (ما الذي غيبك عن المرعى؟!)، (لقد خشينا عليك من المرض)؛ (الحمد لله ليس هناك من مرض، كيف أنتم؟!.

أخبروني عن حالكم)؛ (نحن كما نحن، ما يزال بيننا وبين الشرطة، مثلما صنع الحداد)، (لا ندري لماذا يكرهوننا كل هذا الكره؛ مع أننا لا نسيء إلى من لا يسيء إلينا)؛ (هل تصدقون إذا أخبرتكم بأن الشرطة والجيش، لن يتعرضوا لكم منذ الآن وإلى مدة لا أعرفها؟!)؛ (لا نصدق طبعا، فمن أين لك مثل هذا الخبر؟!)، (لن أستطيع الآن إخباركم، لكني أرغب إليكم أن تمكنوني من رؤية كبيرٍ لكم كي أتمكن من أن أعرض عليه سرا لا يسهل عرضه على الجميع، وأنا أنتظر لقاءه؛ في هذه الساعات القليلة، فهل هذا ممكن؟!)؛ (هذا شيء يعد من شبه المستحيلات، فكيف يتيسر لنا أن نوصلك إلى كبيرنا؟!.

ولماذا نوصلك إليه؟!)، (أما سبب وصولي إليه، وما يسهله عليكم؛ هو حبنا المشترك لـ(قرطبة)، وهو سر لا ينبغي أن أبوح به إلا له، وله أن يخبركم، كما أن له أن يحتفظ بالسر، وأنا أشعر أنكم تثقون بي، كما أثق بكم، فبيننا أخوة

وود قديمان، لا يمحوهما زمن غبت به عن المرعى)، وتفكر القوم، ثم قال لها أحدهم:- (سنعرض الأمر على كبيرنا، وسيفعل الله ما هو خير لنا ولـ(قرطبة)).

لقـــاء الأمـــير

كان جالسا على كرسي بسيط؛ في تلك القاعة البسيطة التأثيث؛ الضعيفة الإنارة، وكانت تجلس بالقرب منه.

لم يكن قلقا قليلا، لكنه كان كثير القلق، هو الآن في قاعة من قاعات قصر الأمير الضخم الفخم، لكن القاعة بسيطة؛ بسيطة التأثيث؛ ضعيفة الإضاءة:- (ترى أيعقل أن تكون مثل هذه القاعة؛ في مثل هذا القصر؟!.

- أيمكن أن يحضر الأمير إلى مثل هذه القاعة؟!.
- كيف اتفق الجميع؛ على موافقة هذه المرأة لزيارة الأمير؟!.
- ما علاقتها بالأمير؟!.
- كيف تمكنت من الوصول إلى الأمير؟!.
- وكيف تمكنت من الحصول على خاتم أمان الأمير؟!.

لو فرضنا أنها سرقته أو وصل إليها بطريقة ما، فهذا هو كتاب الأمير؛ موقع بتوقيعه، وممهور بمهره، وقد كتبت اسمي بنفسي عليه، وقد رافقتها متنكرا بلباس راعي غنم، فدخلنا القصر من حيث يدخل الرعاة لم يعترضنا أحد؛ لم يسألنا أحد عن شيء؛ لم يطالبنا أحد بكتاب أمان، ولا عرضنا خاتم الأمان على أحد؛ ما هذا؟!

- **أأنا في حلم أم في علم؟!.**

أهكذا يمكن دخول (قرطبة)، وقصر أميرها، بلا حسيب أو رقيب؟!)؛ هكذا كانت الأفكار تجول في رأسه المستغرب للأحوال، حين فُتِح باب القاعة فجأة؛ أطل الأمير؛ وقفت لاستقباله؛ وقف معها:- (يا سمو الأمير؛ أقدم لك

كبير إخواني ممن كانوا يشترون مني الخراف والحليب)، وحين عرف الرجل أنه في حضرة الأمير؛ أخذ يده ووضعها على جبينه قائلا له:- (أعذرني –يا سمو الأمير- فأنا لم أتعود الوقوف في حضرة أمير، ولا أعرف طريقة الكلام مع الأمراء، إنما أنا واحد من أبناء الشعب الذين يحبون (قرطبة) وأميرها، ويفدونهما بالنفس والنفيس)؛ (فلماذا تتمردون على الأمير، وتخرجون على القانون؟!)؛ (نحن –يا سمو الأمير- لم نتمرد على الأمير، ولا خرجنا على القانون، لكننا رأينا خللا هنا، واختلالا هناك، فأردنا أن نصلح بالقول، فلم يسمعنا أهل الحل والعقد؛ من أهل التمكن والطَول، فإذا سمعَنا منهم سامع؛ ظن أننا نحرض على السلطة، ونخرج على القانون، فيأخذوننا –بلا ذنوب- إلى السجون، وينسبون لنا –مما لم نعمل-ما ينسبون، ويفعلون بنا وبأهلينا ما يفعلون، فلا يطيق الحر البقاء على الذل، وانعدام العدل، والخوف من القتل فيخرج إلى حيث يتمكن من حماية نفسه، حيث يرد اعتداء من يعتدي عليه، وهذا كل ما بيننا وبينهم)؛ (أهكذا؟!.

- تريدون العدل؟!.
- وما العدل الذي تريدونه؟!.

أتريدون أن يتنازل لكم الأمير وأتباعه عن أموالهم وممتلكاتهم، لتقولوا:- (قد حل العدل)؟!)؛ (يا سمو الأمير؛ ألم تسمع قوله تعالى:- ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٩٠، فالله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-

يأمر ثلاثة أوامر، وينهى ثلاث نواهٍ فأول أمر يأمر به هو العدل، وهو ما نطلبه، ونتخلى عن حقنا الثاني وهو الإحسان الذي أخذه المتسولون غصبا من عيون الناس، مع أن الشاعر الحكيم يقول استنادا إلى قول الله تعالى:-

أحسنْ إلى الناس تستعبدْ قلوبَهمُ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

فمن لم يحصل على العدل، فكيف يطالب بالإحسان؟!.

أما إيتاء ذي القربى، فهو من شأن ذوي القربى -أيا كان مفهوم ذوي القربى- يطالبون به، فينالونه أو لا ينالونه، بحق أو بغير حق، فهذا مما بين الدولة وبينهم، فالناس -على الأقل- تطلب العدل، وترجوا الانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبغي، وهو ما يوشك أن يسود، فحينما يغيب العدل، لا يسود سوى الفحشاء والمنكر والبغي، فكيف يرضى الناس عن هذا؟!)؛ (وتتكلم بالشرع، وكأنك لست كبير الكفار أو من كبارهم)؛ (يا سمو الأمير ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦، والكفر تهمة، والحدود تدرأ بالشبهات، وكثيرا ما تسمع السلطات الفسّاق، ومجرد قول الفاسق شبهة تؤدي إلى الظن، والله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- يدعونا إلى تجنب كثير من الظن حين يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ الحجرات: ١٢، وسمو الأمير؛ يلحظ أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ينهى عن التجسس والغيبة، والكثير مما يقال عنا؛ ناتج ظن مأخوذ عن فاسق

مغتاب متجسس، فمن الذي رأى عملنا الفعلي وطابقه مع الشرع الحنيف، ليقرر أننا على الكفر أو على الإيمان؟!.

وحينما يترك بعض كتاب الله –سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- فيترك العدل، والله –سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- عادل، فأينا الكافر؟!.

وأينا المؤمن؟!.

أيعقل أن يكون كافرا من يطلب العدل، ويكون مؤمنا من ينكر العدل فعلا؟!)؛ (مع ذلك؛ لم تجبني عن ماذا تفهم من العدل؟!)؛ (يا سمو الأمير؛ العدل مفهوم، وهو:- (وضع الشيء في موضعه) أو (إعطاء كل ذي حق حقه)، وهو ما قد يكون صعب التنفيذ، أفيجب أن يموت بعض الناس من الجوع، ويموت الآخرون من التخمة حتى يتحقق العدل؟!)، (وتحسدون الناس على موتهم شبعا؟!.

أي حاقدين أنتم؟!)؛ (يا سمو الأمير؛ الموت شيء يقع على كل حي سوى الحي الذي لا يموت –سبحانه وتعالى- فليس بالموت فرح، ولا عليه حسد، ولكن أليس الأفضل أن يموت الإنسان بلا جوع ولا تخمة؟!.

أليس خير الأمور الوسط؟!.

إننا نتمنى لو أنكم تعيشون حياة سعيدة، لكن هل يكون سعيدا من يعيش بين الأشقياء؟!.

الناس –يا سمو الأمير- أشقياء، والشقي يحتمل شقاءه يوما أو يومين؛ جيلا أو جيلين، فهل يُحتمَل الشقاء إلى الأبد؟!.

- وهل يُنسى العدل الذي أمر الله –سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- والعقل به؟!.
- لماذا يشقى الناس، فيخافهم من يستطيعون أن يعيشوا بلا شقاء؟!.

- لماذا لا يعيش الناس؛ دون خائف ومخيف؟!)؛ (ما أنت؟!.
- مرة تبدو فقيها، ومرة تبدو مصلحا اجتماعيا، فماذا يمكنك أن تكون أيضا؟!.
- أيمكنك أن تكون وزيرا؟!.
- أتحب ذلك؟!.

لو أرشدتنا إلى مكامن جماعتك، وعرفتنا على عوراتها، فأنا أعدك بأن تكون كاتبا من كتّاب أمير (قرطبة)، فماذا تقول؟)؛ (يا سمو الأمير؛ أما الفقاهة، فأنا لا أدعيها لنفسي كما يفعل البعض ويزعمون أن رأيهم هو رأي الله تعالى، لا يتقدم خطوة ولا يتأخر، وإنما نحن نقرأ كلام الله –سبحانه وتعالى- وحديث نبيه الشريف؛ استنادا إلى العلوم المعتمدة، فنفهم منه ما نفهم، ولا نزعم أن رأي الله –سبحانه وتعالى- مطابق لرأينا، لكن هذا فهمنا، فمن جاء بدليل أقوى من أدلتنا، رفعنا له يد التسليم، وسلمنا بالحق، لأن الحق أحق أن يتبع، وما كان لهم علينا من سلطان العلم شيء، فواجهونا باتهامات باطلة، ونسبوا إلينا ما ليس فينا، فنفروا منا الناس، وخوفوا منا الأمراء، وفتحوا لنا سجونا، وشهروا في وجوهنا أسلحة، لو وفروا بعض ما بذلوه عليها للناس، لبدت تباشير العدل، ولتقلص خروج الناس على السلطة، وحاجة السلطة إلى السجون وما يدور حولها من مشكلات شرعية وإنسانية، وأما أن أكون رجل اجتماع، فالحياة تمنح الإنسان المتعلم من الخبرات؛ ما يتيح له أن يقول الحق أو ما هو قريب من الحق، فإذا سمعه من لم يكن على قلبه وقر؛ قَبِلَ رأيَه، ووافق على ما يقول؛ سواء سانده فعلا أو قولا أم لم يسانده، فالحق واضح، وإذا سمح

لي سمو الأمير، رويت له حكاية طريفة؛ طالما رواها لنا والدي يرحمه الله، فقد كان يقول:- (في يوم من الأيام؛ سار الحق والباطل -معاً- مسافة طويلة، فقال الباطل للحق:- (لعلك تعبت من السير؟)، فأجابه الحق بأنه قد تعب من السير فعلا، فاقترح الباطل على الحق أن يحمله، ووافق الحق، فرفعه الباطل، فكان الحق واضحا، لكن الباطل يمشي)، وقد تصور سمو الأمير مغزى الحكاية قطعا، فالحق واضح، لكنه قليل الناصر، حتى نسبوا إلى (عليّ) كرم الله وجهه قوله:- (لم يترك لي الحق من صاحب)، وحتى وصف طريق الحق بأنه موحش لقلة سالكيه، وعلى هذا، فأنا لا أرى المناصب إلا وسائل لتحقيق الحق ونشر العدل، وإلا، فلا قيمة لها، فهي -عندي- ليست غايات بحد ذاتها، وقد فهم سمو الأمير مني أنني أرى المنصب تكليفا لا تشريفا، وإني لو عرفت سموه على مكامن أصحابي وعوراتهم، لأنال منصبا ما أو رتبة معينة، فما يمنعني من أن أعرف سوى سموه على مكامنه ومواضع عوراته إذا منحني رتبة أعلى أو منصبا أرقى؟!.

- إنني كما أنا، خير لسموه لو خضعت لإغراء المال والمنصب، وسمو الأمير؛ يعرف التأريخ، فهل انتهى خروج المظلومين على الظالمين، بخضوع مظلوم لظالم أيا كانت مرتبة هذا المظلوم بين المظلومين؟!.
- وهل انتهت حركة المظلومين لأن السلطة اعتقلت مظلوما ما أيا كان موقعه بين المظلومين أو قتلته؟!.
- فلماذا لا يفكر سمو الأمير في طريقة أخرى لحل هذه المشكلة؟!.

- لماذا لا يفكر بمناقشتنا في مشاكلنا فتتعاون على البداية الصحيحة لحلها؟!.

أنا لم أحضر إلى هنا لاستعرض عضلاتي في فهم الفقه وعلم الاجتماع، ولا حضرت إلى هنا؛ طمعا في منصب، لكني جئت مع أختنا، لأن سمو أمير البلاد؛ أراد مني الحضور، ليقول لي شيئا، فإن كان هذا ما أراده سمو الأمير، عذرني، وسمح لي بالرجوع إلى أصحابي أو اعتقلني، فأنا متخلٍ عن كتاب أمان الأمير لسموه، وأما إذا أرادني لشيء آخر؛ يخدم (قرطبة) والناس، فأنا وجماعتي في خدمة (قرطبة) والناس وسمو الأمير)؛ (كيف أصدق ما تقول، وأنت وجماعتك؛ خارجون على الشرعية؟!)، (أما الشرعية –يا سمو الأمير– فلها حال من حالين؛ يذهب إليهما متشرعة المسلمين، فأما الحال الأول، فهو قائم على النص، وأما الحال الثاني، فهو قائم على الشورى، ولو قام الأمر على الشورى أو على النص، ما خرج من خرج، فكانت القوة والتغلب هما الوسيلتان إلى التسلط المؤدي إلى غير الحق؛ الدافع إلى الخروج على المتسلطين)، (فأنا أميركم بالنص، نَصَّ الأمير الكبير والدي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– على أن أكون وليا لعهده، فلما وافته المنية، كنت الأمير، فماذا تريدون من النص أكثر من هذا؟!)، (ومن نص على تولية الأمير الكبير يرحمه الله؟!)، (لقد خرج على أمير ظالم، فكانت معه القوة، وخضعت له الجماعة)؛ لقد خضع له بعض الجماعة لسبب أو لآخر، أما البعض الآخر من الجماعة، فقد صمت، وأما البعض الثالث، فقد فر أو فرض عليه النفي، وأما البعض الرابع، فقد اضطر للخروج حاملا السلاح،

ولولا وجود الظالمين، لما خرج أحد، ولاكتفينا بالصمت، فيوم من سلطان عادل؛ خير من سبعين سنة عبادة، لكنا وجدنا من حاربنا في أرزاقنا، وطاردنا في بلادنا –بل طردنا منها– وأساء إلى نسائنا وأولادنا، فكان لا بد مما ليس منه بد، ولعل من عيون الحكمة؛ قول (المتنبي):-

وَما قَتَلَ الأَحرارَ كَالعَفوِ عَنهُمُ وَمَن لَكَ بِالحُرِّ الَّذي يَحفَظُ اليَدا.

هنا صمت الأمير متفكرا، فهذا رجل لَسِن ذو حجا وحجج، وهو مصر على ما هو وجماعته عليه، فهل في مثله فائدة أو مغمز؟!.

قال الأمير:- (قد علمتُ ما تريد، وما ترفض، وهم يزعمون أن لكل إنسان ثمنا، فكن صريحا، وأخبرني ما ثمنك؟!)، يا سمو الأمير، لا شك أن لكل إنسان ثمنا، فالإنسان أغلى ما في الوجود، لذلك لا يملك ثمنه إلا الله سبحانه وتعالى، حتى إذا تخلى الشخص عن إنسانيته بثمن ما، فقد قيمته، فكان له ثمن أكبر أو أصغر مما يدفعه له المشتري الأول، وما حاجة سمو الأمير إلى عبد يشتريه؟!.

– أليس في قصر سموه وعلى أعتابه ما يكفي –بل يزيد– من العبيد؟!.

– لماذا لا يصطنع سموه الأحرار؟!.

ونحن أحرار؛ نستطيع معاونة سموه في خدمة (قرطبة) الحبيبة، بوصفنا أحرارا، فما حاجة سموه إلى استعبادنا وضمنا إلى من عنده من العبيد التائقين إلى الحرية أو الآبقين؛ طمعا في الحرية؟!)؛ (أنت تقول كلاما بسيطا؛ تغري به البسطاء، أما أنا، فرجل عملي؛ أحب أن أقول ما أريد، وأن يُنفِّذَ رعاياي ما آمر به، فلي التنظير، وعليهم التدبير)؛ (هذا ما قاله سمو الأمير كثيرا، وهذا ما زعم

الأدعياء أنهم يفعلونه، فماذا تحقق لسمو الأمير ولـ(قرطبة) الحبيبة؛ من هذا التنظير، وذلك التدبير؟!.

إنها سفينة تهتز بعنف؛ في موج كالجبال، وعواصف من أهوال، وسمو الأمير يعلم أن هناك من يعمل على ثقب السفينة المهتزة؛ في هذا الليل المدلهم، فهل يريد سمو الأمير مني ومن جماعتي أن نشارك في ثقب السفينة، وأن نيسر غرقها؟!.

- هل يريد سمو الأمير أن نزين لسموه إدخال خصوم (قرطبة) الحبيبة؛ إليها، بأي زي كانوا، ولأي سبب جاءوا؟!.
- هل يحب سمو الأمير أن نحبب لسموه فتح أبواب (قرطبة) لعساكر تخاصمها ثم نغريه بإدخال الأفاعي إلى فراشه؟!.
- يا سمو الأمير كم قاست (قرطبة) الحبيبة من هجمات خصومها؟!.
- وكم اعتدى خصومها عليها، فلم يبقوا حرمة لقصر أمير أو لكوخ فقير؟!.
- كم سبيت نساء أمراء (قرطبة) الحبيبة ووزرائها؟!.
- وكم انتهكت كرامات فقرائها؛ عيث بأعراض نسائهم؛ وعبث بصباياهم وعذراواتهم؟!.

يا سمو الأمير، إن لـ(قرطبة) الحبيبة أعداءً في داخلها وفي خارجها، فلنكشفهم، ولنكافح -بالعدل- من في الداخل، ولنشيِّدْ لـ(قرطبة) الحبيبة؛ سورا من العدل؛ يحميها، ويحمي أهلها؛ من عدوان الخارج)؛ (أنت عاشق لـ(قرطبة)، والعاشق أعمى، لذا لم تنتبه إلى أن (قرطبة) مدينة قُلَّب، بلا قلب،

فأي عدل تريده لها ولأهلها؟!)؛ (يا سمو الأمير؛ مرة أخرى أضع بين يدي سموك؛ عينا من عيون حكمة (المتنبي) وهو يقول:-

إِذا أَنتَ أَكرَمتَ الكَريمَ مَلَكتَهُ وَإِن أَنتَ أَكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدا

وَوَضعُ النَدى في مَوضِعِ السَيفِ بِالعُلا مُضِرٌّ كَوَضعِ السَيفِ في مَوضِعِ النَدى

ففي شعب (قرطبة) –مثل كل شعوب الأرض- أحرار وأشرار، فلو وجد الأحرار من يصانعهم فيقربهم، ووجد الأشرار قانونا عادلا ممكن التنفيذ؛ يقف في وجوههم، لتغير الحال، وفي (قرطبة)؛ كرام مبعدون، ولئام مقربون، وفي هذا؛ وضع للندى في موضع السيف، ووضع للسيف في موضع الندى، فماذا يفعل كرام (قرطبة) وأحرارها، وفي بضع وعشرين سنة –منذ سنة 399- تم افتضاض (قرطبة) بضع عشرة مرة –ناهيك عما سبق ذلك وتلاه؛ من حالات الافتضاض التي عاناها الناس- من قبل الأعراب والأغراب والبرابرة؟!.

يا سمو الأمير، لقد أعطى (أبو الحزم ابن جهور)؛ السلاح لأهل (قرطبة)، فهل ضاره من ذلك ضائر؟!.

لماذا لم يضره ضائر والناس مسلحة بسلاح الدولة؟!.

لم يضره شيء، لأن أغلبية الناس؛ كانت ترنو للعدل، وقد نالته، فنامت رغدا، وقلة من الناس؛ لم يرضها العدل، فكان الشرع والقانون، لها بالمرصاد، فعاش الناس في هناءة وراحة بال)، (وما الفرق بيني وبين (ابن جهور)؟!.

هاهي ذي عصي المتسولين، بالمرصاد لكل خارج على القانون)، (ومن أكثر الناس خروجا على القانون؛ من المتسولين؟!.

من الذين أشاعوا الفساد والرشوة في البلاد أكثر مما فعلوا؟!.

من الذين نشروا الأكاذيب والخزعبلات والأضاليل بين الناس؛ أكثر منهم؟!.

أليس بعضهم يهاجم بعضا في محاولة لتخريب مسجد بناه أو ضريح لولي ادعاه، لأنه لا يشاركه في مكاسبه، ولو شاركه في مكاسبه؛ ما راعه؟!)؛ (إذن فأنتم أعداء للمتسولين، أي أنكم من أعداء (قرطبة) العظيمة، وأنا الآن، أتحلل من كتاب الأمان الذي بين يديك، وآمر بالقبض عليك)؛ (يا سمو الأمير؛ أنا امرأة لا أفهم بالسياسة، وأكثر ما قلتموه؛ لم يهضمه عقلي، وهذا الرجل أمانة في ذمتي، وقد أمر ربنا –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– أن نؤدي الأمانات إلى أهلها حين قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ النساء: ٥٨، فعليَّ أن أؤدي أمانتي إلى أهلها، فإن تحللْتَ من أمانك، وأمرت بالقبض عليه، فليس لي إلا أن أكون معه مقبوضا عليّ، فقد لا يعلمون أنه قبض عليَّ حفاظا عليه، لكن الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– يعلم أني لم أَخُنْكَ في سرٍ ولا علن، كما لم أَخُنْ أمانتي أمام الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– وأمام نفسي، فافعل ما أنت أهل له، وأجدر به، فإن أعدته إلى مأمنه، فهذا فعل الأحرار، وإلا، فأنا لن أفرط بأمانتي، وسأفعل ما يرضي الله سبحانه وتعالى)، (أما أنا –يا سمو الأمير– فلا أعرف ما شأن أختنا هذه مع سموك، وأنا –أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– أعفيها من كل ما في ذمتها، وأعذرها على ما فعلت، ولتبقَ من سموك كما هي، ولتفعل سموك معي ما تحب، فالله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– مع الحق وهو يهدي سواء السبيل)؛ (أنا أشم الإخلاص في ما تقول، لكنني لم أتعود أن

أسمع مثلما تقول، فأنا أقول، والكل يطيع، ولا يجادلني أحد فيما أقول، فأذهب معها توصلك إلى مأمنك، وأنا لا أعرف ما الذي سيحصل في المستقبل، بيد أنني أتوقع أن أراك مرة أخرى، لكن على أية حال؟!.

لست أدري؛ أرجو أن ألقاك بخير، وإن كنت أتمنى أن يكون مثلك كاتبا لي، لكن هل أوصيك بـ(قرطبة) العظيمة؟!.

يبدو أنكم تعرفون الكثير؛ مما يجري في القصور من الأسرار)؛ (نحن –يا سمو الأمير– لسنا في حاجة إلى توصية بـ(قرطبة) الحبيبة وأهلها؛ الأمر كله أننا نتمنى أن يسود العدل، وكنا نرجوه على يدي سموك في هذه الظروف، غير أن لله –سبحانه وتعالى– الأمر من قبل ومن بعد، فأسمح لي –يا سمو الأمير– بالمسير)، (أما تريد من الأمير؛ شيئا قبل المسير؟!)؛ (أريد سلامة (قرطبة) الحبيبة، كما أريد أن أعرف من سمو الأمير؛ سبب فخامة هذا القصر وضخامته، وبساطة هذه القاعة التي نحن فيها؟!)؛ (ما كنت أحب أن أتحدث عن هذا، لكن أبلغ صحبك أن قصر (قرطبة)، لإبهار أعدائها، وأما أميرها، فزاهد هذا مجلسه وهذا ملبسه)، وخرج الأمير فخرجا من بعده، لتذهب به إلى مأمنه.

مجلـــس الحـــرب

في قاعة فخمة؛ من قاعات القصر حيث أرائك الساج الأنيقة الجميلة المزخرفة -المغلفة بالحرير الطبيعي- مصفوفة والزرابيُّ -المرسوم عليها بخيوط الذهب والفضة- مبثوثة، وشموع الكافور والصندل تتألق على شمعدانات من الذهب والفضة؛ تضيء القاعة الفسيحة، وتعطر أرجاءها بأطيب العطور؛ المضافة إلى عطور الزهور؛ المنشورة في زهريات البلور؛ الموضوعة على مناضد الساج؛ المغطاة بالحرير المطرز بالأوراد؛ كان كل منهم يجلس في مجلسه المقرر له ضمن مجلس الأمير، وكان كل منهم يفكِّر فيما يقوله للأمير كي يرضيه، ويغريه بإبقائه في منصبه أو بالإنعام عليه بمنصب أعلى.

دخل الأمير مسلما، فقاموا له جميعا، وهم يردون عليه السلام؛ بقوا واقفين في حضرة الأمير حتى جلس ثم أمرهم بالجلوس، فجلسوا وكان بينهم حديث مجاملة سريع انتهى بأن أمر الأمير كبير سفرائه بالكلام فقال:- (يا مولاي؛ يعلم سموكم –أعزكم الله وأبقاكم- أن سفراءنا ساروا بأمر سموكم؛ كل إلى حيث بلاط الملك الذي أمر سموكم بالمسير إليه، وقد علمتم سموكم –أعزكم الله وأبقاكم- أن جلالة ملك مملكة الشمال؛ أرسل سفيره بالهدايا والهبات مع اقتراح أن يكون ابنه فردا من أفراد استعراض جيش (قرطبة) العظيم؛ أمام قصر سمو الأمير الكريم –أعزه الله وأبقاه- فلعل وعسى أن يحظى بشرف رضا إحدى الأميرات عنه، لكن هذا الأمر، كان مرفقا بطلب من الملك الوالد؛ يطمح فيه إلى أن يحظى برضا سمو الأمير الكريم –أعزه الله وأبقاه- بأن ترافق ابنه -لحمايته- ثلة من الجند صغيرة؛ تتكون من نحو ألف من الفرسان، فلما أبدا سفيرنا لجلالة ملك الشمال؛ رأفة سمو الأمير الكريم –أعزه الله وأبقاه-

بالأمير الضيف، وأن جند سمو الأمير الكريم –أعزه الله وأبقاه– سيحمون الأمير الضيف؛ تجهم وجه جلالة الملك بعض تجهم، واقترح أن تتأجل زيارة الأمير الضيف لـ(قرطبة) العظيمة؛ إلى عام قابل، وأنهى جلالة الملك اللقاء)، (فما شأن ملك مملكة الجنوب؟)، (أما جلالة ملك مملكة الجنوب، فقد ترك سفيرنا ينتظر مقابلته بلا طائل، حين علم من وزرائه أن سمو أمير (قرطبة) العظيم –أعزه الله وأبقاه– يرى عدم الحاجة إلى سفن ترافق الأمير الضيف، فلدى (قرطبة) العظيمة سفن كافية للاستعراضات المبهجة، وسفيرنا ينتظر أمر سمو الأمير –أعزه الله وأبقاه– بالبقاء أو الرجوع، فمقابلة جلالة ملك مملكة الجنوب، لعرض رأي سمو الأمير الكريم –أعزه الله وأبقاه– غير متصورة في الوقت الحاضر، لأن جلالة الملك؛ أرجأ مقابلة سفيرنا إلى أجل غير معروف، إذ لم يُلمح وزراء جلالة الملك، لسفيرنا بشيء آخر)، (فما حال ملك مملكة الغرب؟)، (لقد وصل سفيرنا إلى قاعدة ملكه، وأنشد في حضرته المدائح الطوال؛ يستثير نجدته لمعاونة (قرطبة) العظيمة ومما أنشده سينيته التي يقول فيها:–

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللَّهِ أندلُسَاً إنَّ السَّبِيلَ إلَى مَنْجاتِها دَرَسَا
وَهَبْ لهَا مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ مَا الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عزُّ النَّصْر مُلْتَمَسا
وَحاشِ مِمَّا تُعانِيهِ حُشَاشَتهَا فَطَالَمَا ذَاقَتِ البَلوَى صَبَاحَ مَسَا
يَا للجَزيرَةِ أَضْحَى أَهلُها جَزَراً لِلحَادِثَاتِ وأَمْسَى جَدُّهَا تَعَسا
في كُلِّ شارِقَةٍ إلْمَامُ بَائِقَةٍ يَعُود مَأْتَمُها عِندَ العِدَى عُرُسا
وكُلِّ غَارِبَةٍ إجْحَافُ نائِبَةٍ تَثْنِي الأَمَانَ حِذاراً والسرُور أَسَى
تَقَاسَمَ الرومُ لا نَالَتْ مَقَاسِمُهُم إلا عَقَائِلَها المَحْجوبَةَ الأُنُسَا

وَفِي بَلَنْسِيةٍ مِنْها وَقُرْطُبَةٍ ما يَنْسِفُ النَّفسَ أَو ما يَنزِفُ النَّفَسا
لَهْفِي عَلَيها إِلَى استِرجَاعِ فائِتِها مَدارِساً لِلْمَثاني أصبَحَتْ دُرُسا
وَأَربعا نمْنمَتْ يُمْنَى الرَّبيعِ لَها ما شِئت مِنْ خِلَعٍ مَوْشِيَّةٍ وكُسى
كانَتْ حدَائِقَ للأَحْدَاقِ مؤنِقَةً فَصَوَّحَ النَّضْرُ مِن أَدْواحِها وَعَسا
وَحَالَ ما حَوْلَهَا مِنْ منْظَرٍ عَجَبٍ يَسْتَجْلِسُ الرَّكْب أَوْ يَسْتَرْكِبُ الجُلُسا
صِلْ حَبْلَها أَيُّها المَوْلَى الرَّحيمُ فَما أَبقَى المِراسُ لَها حَبْلاً وَلا مَرَسا
وَأَحْي مَا طَمَستْ مِنْهُ العُداةُ كَمَا أَحيَيْتَ مِن دَعوَةِ المَهْدِيِّ ما طُمِسا
هَذِي وَسائِلُها تَدْعوكَ مِنْ كَثَبٍ وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرجُوٍّ لِمَنْ يَئِسا
وَافَتْكَ جارِيَةً بالنُّجْحِ رَاجِيَةً مِنكَ الأَمِيرَ الرِّضَى والسَّيِّد النَّدِسا
إِنَّ السَّعيدَ امْرُؤٌ أَلقَى بِحَضرَتِهِ عَصَاهُ مُحْتَزِماً بالعَدْلِ مُحْتَرِسا

وهو بصدد شكل من أشكال الاستجابة؛ لم يتحدد بعد، غير أن هناك اقتراحا بإرسال المصحف العثماني –الذي كان من ذخائر بني أمية في الشام، ونقلوه لـ(قرطبة) العظيمة– إليهم، فهناك أأمن عليه، ولسمو الأمير –أعزه الله وأبقاه– الرأي الأول والآخر)؛ (قد نأمنهم عليه، ونحفظه لديهم، فما آخر مطالب ملك (الروم) للكف عن محاصرة (قرطبة) العظيمة عدى عن منازلتها؟)، (قد يكفُّ جلالة ملك (الروم) عن منازلة (قرطبة) العظيمة إذا تحققت له ثلاثة شروط هي:-

1. يزعم جواسيسه أن لدى (قرطبة) العظيمة؛ نشاطا ينتج عنه شيء يسمى (البارود)؛ يمكنه أن يصيب البشر فيقتلهم من بعيد، فهو يريد استلام ما لدى (قرطبة) العظيمة من هذا (البارود)، والمعلومات التي تؤدي إلى إنتاجه.

2. تدمير كل المنشآت التي تؤدي إلى اختباره أو تساعد على إنتاجه.
3. تسليمه كل العلماء المشتغلين بهذا الشأن، وهو يعرفهم بالأسماء وأولهم معلمة سمو الأمير –أعزه الله وأبقاه– والأمر لسمو الأمير –أعزه الله وأبقاه– أولا وآخرا)، (فما رأي قائد جيشنا الباسل؟)؛ (لسمو أمير البلاد –أعزه الله وأبقاه– الرفعة والسداد؛ جيشنا جيش عظيم؛ قوي الجنان؛ مرهوب الجانب؛ عالي الروح المعنوية؛ له من الأسلحة والأعتدة، والذخائر والأرزاق الجافة والرطبة؛ ما يكفيه ستة أشهر أو يزيد، وهو خاضع لأمر سمو أميره المفدى –أعزه الله وأبقاه– ولسموه –اعزه الله وأبقاه– الرأي النافذ والأمر المطاع)، (فما قول شيخ المتسولين؟)؛ (المتسولون –أعز الله سمو الأمير وأبقاه– في خدمة سمو الأمير –أعزه الله وأبقاه– قلبا وقالبا، وعصيهم الغليظة بالمرصاد، لكل ضال أو مضلل، فسر والله يرعاك، ويكلؤك ويحمي حماك، والمتسولون من ورائك؛ يحمون الحمى، ويرعون الحرمات، ويحمون حارات المدن وأزقتها والقصبات)، (فما قول قاضي القضاة؟)؛ (الجن –أعز الله سمو الأمير وأبقاه– عندنا بعضه وهو معنا، وعندهم بعضه الآخر وهو معهم، والحرب سجال، وبين جننا وجنهم جدال ونزال، وجننا الأقوى في تحمل المصاعب والأهوال، وعبد سموكم –أعزكم الله وأبقاكم– هو حرسكم الخاص والمتكفل بحمايتكم، فعندي من الأدعية والأوراد؛ ما يحمي الذرية والأولاد، وعندي قارورة ماء قرأ عليها سيدي الشيخ الجدّاء، سأخصكم بها وألقي بقطرات مما فيها من مياه؛ تحكم الأمواج حول سفننا، وتغمر بالماء سفن الأعداء إذا فكرت في التطاول على

الوادي الكبير، فسمو الأمير الخطير؛ في أمان كبير، وشأنه ليس بخطير، وهو مما لا يضير)، وهز الأمير رأسه بما لم يُفهَم معناه، وأمرهم بالانصراف.

شهـــود علـى العصـــر
فذلـــكة مـــؤرخ

(كانت أمواج الأحداث –حول (قرطبة)- تزداد ارتفاعا وتلاطما؛ في ظلمات مدلهمات، بعضها فوق بعض، فإلى جانب مشكلات (قرطبة) مع مجمل الممالك القريبة منها، فقد ظهر فيها أنبياء كذابون وأدعياء للمهدوية أو دعاة لهؤلاء الأنبياء الكذابين والأدعياء ممن لم يكونوا في (قرطبة)، بل كانت مساكنهم خارجها أو في دول أخرى.

كانت المعلمة تنظر بعينين مغرورقتين بالدموع؛ إلى هذا كله، وإلى المصحف العثماني، ورجلين يحملانه على كرسي من ساج، ويتجهان به –برفقة ابن ملك الغرب- إلى عاصمة بلاده، كما رأت سفير ملك الروم، وهو يتلقف مجلدات المخطوطات التي تتضمن معلومات علماء (قرطبة)؛ عن البارود، وكان علماء (قرطبة)؛ مذهولين؛ يشرفون على تدمير مختبرات البحث عن البارود والمعامل المهيأة لإنتاجه بأموال الشعب القرطبي الجائع، إنهم ينتظرون –بقيادة معلمة الأمير- مصيرا مجهولا في بلادهم أو في بلاد ملك الروم الذي طالب بتسليمهم إياه.

الحصار يشتد على (قرطبة)، وتقترب سفن الخصوم؛ من الوادي الكبير، ويعرّف قاضي القضاة؛ أميرَ (قرطبة) أن (جنَّهم قد قيَّد جنَّنا، وجنهم مطلق الأيدي في بلادنا، فعليَّ حماية الأمير وحده من المخاطر، بأن أقرأ الأدعية والأوراد، وألقي من زجاجة شيخنا الجداء قطرات في الماء؛ ماء الوادي الكبير)؛ فرق فرسان الروم وأحلافهم –من الأعراب والأغراب والبرابرة-

تجتاز حدود إمارة (قرطبة)، ومع أن على الفرسان التصدي لها، لكنهم يتسربون من الأبراج والقلاع؛ زرافات ووحدانا، فيتشتتون في فحوص الإمارة، وحقولها وبساتينها وأوديتها، أما قادتهم، فحين يرون خلو المعسكرات والقواعد والقلاع والأبراج؛ من جندها وفرسانها، فإنهم يتخلون عن ملابسهم وأسلحتهم، ويشترون ثياب الرعيان؛ يتنكرون بها في الفرار من وجه الأعداء، فلم ترتفع أثمان ثياب الرعاة؛ أكثر مما ارتفعتْ في هذه الأيام، ومع ذلك، فلا يخيف الأمير ورهطه –في هذا الوقت– شيء أكثر من البيازين الذين يقودون الفقراء، والمتمردين الذين يتصور الأمير ورهطه هجومهم على (قرطبة) بل على القصر، وواقع الحال أن المتسولين تخلوا عن مواقعهم في أزقة (قرطبة) وحاراتها، بل تهيئوا –مع الرعاع والغوغاء والمتسللين– لنهب (قرطبة)؛ دورا وقصورا، ولم يحمِ أبناء (قرطبة) ودورها ودكاكينها؛ من النهب والسلب، ونساءها من السبي والغصب إلا البيازون والفقراء الذين خرجوا يحملون المطارق والفؤوس والمساحي، ويقال أن المتمردين خرجوا لمقاومة (الروم) وأحلافهم، ومعهم فرقة من الأسود –التي يمتطيها بعض فرسان المتمردين– تقودهم امرأة يقال لها (الراعية)؛ تنكرها خيل الروم وتنفر منها، وكانت –مع هذه الأسود– جماعة من الحيوانات؛ تهاجم خيل الروم وفرسانها، وزواحف تزحف بينها فتلدغها وتسممها؛ الأمر الذي جنَّنَ جنون الروم، وتركهم ينطلقون من السفن الراسية في البحار القريبة من (قرطبة)؛ نيرانا تسقط على الأبراج والقلاع والمعسكرات؛ الخاوية من الفرسان والجنود، فتحرقها، ولا تستثني الدور والقصور والبساتين، وتقصد الأسود التي تنكرها الخيل فتنفر

منها إذ ترهبها وترعبها، فتهرب منها فارّة بنفسها؛ حاملة فرسانها أو مسقطة إياهم، ولا يتمكن هؤلاء القوم؛ من الصمود في وجه هؤلاء الخصوم لذلك يحتلَّ الروم (قرطبة) بمساعدة جيشي ملك مملكة الشمال، وملك مملكة الجنوب، بالتعاون مع قائد القوات المتسول، فإذا مرَّ جيش الروم بطوائف المتسولين، أنزلوهم، وأجلسوهم في مضايفهم، وأطعموهم، وترفّقوا بهم، فإذا دخلوا (قرطبة)؛ لم يجدوا مَن يتصدى لهم غير الفقراء بقيادة البيازين؛ ولا تفتح محلات المتسولين أبوابها للروم إلا إذا اتفقوا معهم على أن يدخلوا المحلة، ولا يدخلها معهم أو بعدهم الفقراء والبيازون، ويتألم قائد القوات المنهزمة لأن سلاح ماء النار لم يتوفرّ، ولو كان بيده لضرب به الفقراء والبيازين، أما قاضي القضاة، فهو يدور حول الأسوار الحديدية التي تقع على جانبي نهر الوادي الكبير في (قرطبة) كي تمنع من الوصول إلى قصر الأمير؛ في الضفة الأخرى، إنه يركض، ويأخذ قطرات الماء؛ من زجاجة في يده يلقي بها على مياه النهر، فقد تصلها، ويغلب ألا تصلها).

قـــــال جـــــدي

(حدثني أبي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عن جدي –وكثيرا ما كان يحاوره- قال:- (قلتُ لأبي –يرحمه الله- مرة:- (لو أنكم لم تخرجوا على وطنكم، لكان أجدى لكم، وأجدر بكم، فقال:- (يا ولدي العزيز؛ هم –كذلك- كانوا يزعمون أننا نخرج على وطننا، ونتمرد عليه، وواقع الحال أننا لم نخرج على وطننا، بل وقفنا معه دائما، فقد كان مظلوما كما كنا مظلومين، لكنهم يحاولون التوحيد بين الوطن والظالم مغالطةً، فإذا ما تكلم متكلم عن الظالم، زعموا أنه فاسق؛ يشتم الوطن، وإذا خرج أحد على الظالم –لتجاوز ظلمه الحد- زعموا أنه تمرد على الوطن، وما كان شيء أعز علينا من الوطن، فقد ضحينا –من أجله- بكل شيء، بأموالنا، بأهلينا، بأنفسنا، ألا تذكر ما فعلوه بك وبأمك؛ يوم اعتقلوكما رهينتين حتى أحضر؟!.

ولولا أن أنقذكما الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- لكنتما ضائعين كما ضاع غيركما في السجون السرية التي لا يعرفها إلا أناس لم يذكروا أنهم كانوا موكلين بها، فانظُرْ من يحكم (قرطبة) اليوم؟

إذا تجاوزت الوجوه الكبيرة القليلة التي تم تبديلها، أليس الذين يحكمون (قرطبة) الآن؛ هم أنفسهم الذين كانوا يحكمونها في عهد الأمير ممن يقولون:- (الي ياخذ أمي، أسمي عمي)؟!.

فلولانا، لذهبت (قرطبة) لقمة سائغة للروم أو لغيرهم منذ وقت طويل)، فما مشكلتكم معهم غير الظلم؟.

وهل بعد الظلم مشكلة يا ولدي العزيز؟!.

لقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:- ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ آل عمران: ٥٧ -في غير موضع من القرآن الكريم- فهل تريد منا أن نحب الظالمين؟!.

لو فعلنا ذلك لكنا ممن يناصبون اللهَ -سبحانه وتعالى- العداء، وأهم ما كانوا -وما يزالون- يتهموننا به هو الكفر، وإفساد الشباب، والتشكيك، وهي تهم أزلية يعرفها من ينظر في التأريخ العام أو في تأريخ الفلسفة)، فهل يمكنك أن تبيِّن لي مظهرا يعبر عن الظلم الذي كنتم تعانونه؟.

((قرطبة) مدينة من أغنى مدن العالم إن لم ترفل بأثواب أغنى مدن الأرض، وهو شيء تقرؤونه في الكتب، وحقيقة الحال أن أقلية قرطبية رفلت في الغنى وعاشت في النعيم، فأما شعب (قرطبة) الحقيقي -وهو أغلبية أبنائها-فقد عاث به الفقر وعبث به الظلم والفساد والإجحاف حتى كان أفقر شعب يعيش في أغنى مدينة، وقد عبَّر عن ذلك شاعر قرطبي لطيف هو أبو وهب عبد الرحمن العباسي القرطبي حين قال:-

أنا في حالتي -التي قد تراني إن تأملت- أحسن الناسِ حالا

منزلي حيث شئتُ من مسْتقر الـ أرض أُسقى من المياه زُلالا

ليس لي كسوةٌ أخاف عليها من مغير ولا ترى لي مالا

أجعل الساعد اليمين وِسادي ثم أثني-إذا انقلبتُ- الشمالا

فهل ترى أشد فقرا من هذا الشاعر الظريف الذي لا يملك منزلا ولا كسوة يخاف عليها فهو عارٍ، كما أنه لا فراش له ولا وساد غير يمينه وشماله؟!.

إنه يعبر -بهذا- عن كثير من القرطبيين)، فحدثني عن مجريات أحوالكم في آخر أيام (قرطبة)؛ ما الذي حل بمعلمة الأمير والعلماء القرطبيين الذين كانوا يحيطون بها؟.

(أما معلمة الأمير، فكانت مطلبا لكل أعداء (قرطبة)؛ كلهم كانوا يطلبونها، ويطلبون دمها، ولو نالوا دمها، لشربوه، لكننا لم نعرف مصيرها، ولا ما حل بها، أما العلماء، فكانوا على أحوال، فمنهم مَن فَرَّ في أيام الأمير أو بعده؛ خلاصا بنفسه، ومنهم مَن وصل إليه الأعداء؛ في زمن الأمير أو بعده، فتوصلوا إلى سجنه أو قتله، ومنهم مَن أخذوه إلى بلاد الروم، فلا نعرف شأنه، وأما المخطوطات، فقد وصل بعضنا إلى بعضها، فحفظه عنده، فنجا من السلب والنهب والحرق، فأعيد إلى مكتبات داخل (قرطبة) أو خارجها)، فما مصير الأمير؟.

(لما فرَّ الفرسان والمتسولون وقادتهم؛ من وجه الروم -أو تفاهموا معهم- كان علينا أن نتفاهم مع البيازين والفقراء لحماية (قرطبة) وأهلها، ما أمكننا إلى ذلك سبيلا، وقد فعلنا ما تمكنا منه، فقد وقفنا في طريق الروم وأحلافهم؛ وقوف الآساد المدافعة عن عرائنها، وكانت معنا فرقة من الأسود؛ يرتحلها بعضنا، وتقودها سيدة عرفناها بالراعية؛ كان لها مع الأمير شأن لا نعرفه، وكانت أختا عزيزة لنا؛ أبلغت كبيرنا طلب الأمير كي يراه، وحملت له كتاب أمان أميري، ومعه خاتم أمان الأمير، ووافقنا على اللقاء؛ أملا في تضييق الهوة، بيننا وبين الأمير؛ في وقت كانت الحوادث فيه كالأمواج العاتية، وكانت عواصف العواطف تحيط بنا، فكانت قشةً أمِلَ غرقانا النجاةَ بالتمسك بها، ولما

احتدم النقاش بين كبيرنا وبين الأمير، ورأى الأمير أن يتنصل من أمانَيه؛ كان للراعية موقف لا ينسى، فقد وقفت مع كبيرنا، وأصرت على نجاته، فإن اعتقل أو قتل، كانت معه معتقلة أو مقتولة، وقد نجا بثباتها على العهد، لكنهما كانا من شهداء (قرطبة)، فقد قصدتهم نيران جن الروم، فقتلتهم وأحرقتهم، وما نجا منا إلا القليل، أما الأمير، فمنهم من يزعم أنه قتل، ومنهم من يزعم أنه انتحر، ومنهم من يزعم أنه فرّ، ومنهم من يزعم أنه غاب في النهر، وأن القاضي يحميه، بما يلقيه من مياه مسحورة؛ يحملها في قارورة؛ إلى الوادي الكبير، وأن الأمير سيظهر، متى شاءت العناية الإلهية ذلك، ولم يبقَ من يذكر هذا كله إلى القليل).

قالـــت جـدتـي

في ليلة ربيعية مقمرة؛ كانا يسيران؛ عاشقين مدلَّهين؛ في روضة من رياض إحدى ضفتي الوادي الكبير، وكانا يتحدثان بما يشغل العشاق، لكنها سألته –على حين غرة– قائلة:– (أترى ولادة بنت المستكفي وابن زيدون –وكانا يجوسان في هذه الرياض والبساتين– أجمل منا وأشد هوى؟)، (أما أن يكونا أجمل منا وأشد هوى، وأكثر تدلها، فلا أظن ذلك، لأنني لا أرى أحدا أحب أو يحب امرأة –من قبل أو من بعد– أكثر من حبي لكِ، لكن قد تكون الرياض والبساتين التي كانا يجوسان فيها ويجلسان؛ أجمل من هذه الرياض والبساتين البرية، فقد كانت يد الإنسان؛ كثيرا ما تنفحها، بكثير من الجمال، وتنثر فيها لا الأوراد والأزهار حسب، بل تنثر معها الأزجال والأشعار، فما أجمل أشعار ابن زيدون التي قالها في ولادة؟!.

وما أحسن ما استمعت ولادة إلى تلك القصائد، وردت عليها بالشعر أو بالكلام المنثور أو بالقبل المنثورة على وجه ابن زيدون، وأنا لا أملك لسان ابن زيدون، لأقول فيكِ ما قاله في ولادة من شعر، غير أنني أملك قلبا أشد جوى وأكثر هياما بكِ من قلب ابن زيدون بولادة، فهل يكفيكِ هذا؟!)، وبينما كانت تستمع إلى غزله بأذني فرس كحيلة مرهفتين، وتشحذ ذهنها للرد عليه، إذا بمنظر غريب يذهلها، ويشغل عقلها:– (انظُرْ؛ انظُرْ أترى هذا الشيخ المعمم الذي يركض قرب النهر، وفي يده قارورة يلقي من مائها على النهر؟!.

لعله شبح آخِرِ قاضٍ من قضاة (قرطبةِ) الأمير، فهاهو ذا يردد ما كان يردد؛ يوم دخل الروم (قرطبة)، لقد حدثتني جدتي أنه كان شيخ الفوالين والرمالين

وعدادي النجم في (قرطبة)؛ مع أنه كان قاضيا للقضاة، وأن جدتي كانت تقصده إذا اختلفت مع جدي؛ لم يحل مشكلة ما، لكن النساء يذهبنَ إليه لحل مشاكلهن، فمن اختلفت مع زوجها، ذهبت إليه، ومن لم تحمل، ذهبت إليه، ومن حملت البنات وطلبت البنين، طلبتهم منه، ومن أرادت لابنتها زوجا، قصدته، وهكذا كان حلال المشاكل التي لا تُحَل، فلما رأى أن الروم بالغوا (قرطبة) –لا مراء في ذلك- زعم أنه سيحمي الأمير بهذا الماء الذي يلقيه من قارورته إلى النهر، فهذا شبح القاضي، فما حال الأمير؟!)؛ طبع على فمها قبلة حارة غير معنية بالقاضي حقيقة كان أم شبحا ولا بالأمير.

قـــــال شـــــاعر

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ

يُمَزِّقُ الدَهرُ حَتماً كُلَّ سابِغَةٍ إِذا نَبَت مَشرَفِيّات وَخرصانُ

وَيَنتَضي كُلَّ سَيفٍ لِلفَناء وَلَو كانَ ابنَ ذي يَزَن وَالغِمد غمدانُ

أَينَ المُلوكُ ذَوي التيجانِ مِن يَمَنٍ وَأَينَ مِنهُم أَكالِيلٌ وَتيجَانُ

وَأَينَ ما شادَهُ شَدّادُ في إِرَمٍ وَأينَ ما ساسَه في الفُرسِ ساسانُ

وَأَينَ ما حازَهُ قارونُ من ذَهَبٍ وَأَينَ عادٌ وَشدّادٌ وَقَحطانُ

أَتى عَلى الكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدّ لَهُ حَتّى قَضوا فَكَأَنّ القَوم ما كانُوا

وَصارَ ما كانَ مِن مُلكٍ وَمِن مَلكٍ كَما حَكى عَن خَيالِ الطَيفِ وَسنانُ

دارَ الزَمانُ عَلى دارا وَقاتِلِهِ وَأَمَّ كِسرى فَما آواهُ إِيوانُ

كَأَنَّما الصَعبُ لَم يَسهُل لَهُ سببٌ يَوماً وَلا مَلَكَ الدُنيا سُلَيمانُ

فَجائِعُ الدُهرِ أَنواعٌ مُنَوَّعَةٌ وَلِلزَمانِ مَسرّاتٌ وَأَحزانُ

وَلِلحَوادِثِ سلوانٌ يُهوّنُها وَما لِما حَلَّ بِالإِسلامِ سلوانُ

دهى الجَزيرَة أَمرٌ لا عَزاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانهَدَّ ثَهلانُ

أَصابَها العينُ في الإِسلامِ فارتزَأت حَتّى خَلَت مِنهُ أَقطارٌ وَبُلدانُ

فاسأل بَلَنسِيةً ما شَأنُ مرسِيَةٍ وَأَينَ شاطِبة أَم أَينَ جيّانُ

وَأَين قُرطُبة دارُ العُلُومِ فَكَم مِن عالِمٍ قَد سَما فِيها لَهُ شانُ

قَواعد كُنَّ أَركانَ البِلادِ فَما عَسى البَقاءُ إِذا لَم تَبقَ أَركانُ

أَعِندكُم نَبَأ مِن أَهلِ أَندَلُسٍ فَقَد سَرى بِحَدِيثِ القَومِ رُكبَانُ

كَم يَستَغيثُ بِنا المُستَضعَفُونَ وَهُم قَتلى وَأَسرى فَما يَهتَزُّ إِنسانُ

وَلَو رَأَيت بُكاهُم عِندَ بَيعهمُ لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ

يا رُبَّ أُمٍّ وَطِفلٍ حيلَ بينهُما كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبدانُ

وَطفلَة مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إِذ برزت كَأَنَّما هيَ ياقُوتٌ وَمُرجانُ

يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكرَهَةً وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ

لِمثلِ هَذا يَبكِي القَلبُ مِن كَمَدٍ إِن كانَ في القَلبِ إِسلامٌ وَإِيمانُ.

نبذة موجزة
عن سيرة الدكتور/ خليل محمد إبراهيم الثقافية والتراثية

من مواليد بغداد 1943.

كُفَّ بصري في عام 1944 .

دخلْتُ معهد الأمل قسم المكفوفين عام 1954 .

واصلْتُ دراستي مع المبصرين ابتداءً من الصف الخامس الابتدائي .

أكملْتُ دراستي الجامعية في كلية الشريعة عام 1969-1970 الدراسي .

عملْتُ مدرسا للغة العربية والتربية الإسلامية في المدارس المتوسطة والإعدادية والثانوية العراقية؛ أكثر من عشرين سنة.

درَّسْتُ/ في الكلية التربوية المفتوحة/ مادتَي الأدب الأندلسي والأدب الجاهلي، وبضع مواد تراثية أخرى.

أتممْتُ دراستي للماجستير في قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة بغداد بتقدير جيد جدا عن رسالتي المعنونة: (المفضليات دراسة في مواصفات الاختيار) .

أتممْتُ دراسة الدكتوراه في قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة بغداد في الأدب الأندلسي بتقدير جيد جدا عن أطروحتي المعنونة:- (ملامح قصصية في الرسائل الأدبية النثرية الأندلسية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجريين).

تلك الأطروحة التي تحوَّلتْ إلى كتاب عنوانه:- (ملامح قصصية في الرسائل الأندلسية؛ صدر في عام 2013)، فواضح/ من هذا/ أنني إلى جانب كوني ناقدا للقصة والشعر، فأنا تراثيٌّ مشغول بالتراث العربيِّ القديم؛ ذلك التراث الذي دخلْتُ إليه من باب التراث الشعبي، فقد روى لي المرحومان جدي وجدتي، الكثير من القصص الشعبي، حيث عرفْتُ منهما الكثير من حكايات (كليلة ودمنة)، و(ألف ليلة وليلة)، وغيرها من القصص والأمثال الشعبية العراقية، وحكايات الدراويش؛ كما كان للمرحوم الحاج (عبد اللطيف حسن دروش) التتنجي/ جار أبي في المحل\ الكثير من القصص التاريخية، والسيرة النبوية الشريفة، وسير آل بيت الرسول (ع)، وأصحابه الكرام؛ كل ذلك؛ كان قبل دخولي إلى المدرسة، فلما دخلْتُ المدرسة الابتدائية، وبدأْتُ القراءة، وجدْتُني أعرف الكثير من القصص الشعبي المكتوب، والمنجز التاريخي الإسلامي، فلم يكن ذلك كله غريبا عني، لذلك كان له تأثير كبير؛ على توجهاتي العلمية كذلك كان له تأثير كبير؛ على نشاطاتي الأدبية المنشورة والتي في طريقها إلى النشر، لذلك يمكن دراسة أثر التراث؛ في منجزي الأدبي والعلمي، فأول رواية صدرت لي في عام 2014؛ عنوانها:- (دولة المتسولين)، وأصلها/ وجانب صغير من ثيمتها\ مأخوذ من حكاية شعبية عنوانها:- (ساندريلا عراقية المتسولة والأمير؛المنشورة في العدد الثاني 2009 على ص125- 126؛ من مجلة (التراث الشعبي) العراقية الغراء، كما أن (دولة المتسولين)/ بوصفها رواية\ تستثمر التراث الأندلسي؛ الاجتماعي والشعري

والفكري والفقهي والديني؛ مع أنها تناقش المشكلات الحديثة، فإلى تأثري الكبير بالتراث العربي والإنساني العام، والشعبي، فأنا مهتم بالفكر الإنساني؛ الحديث؛ الذي لا يغيب عن حياتي، ولا في منجزي الأدبي والعلمي.

صدرتْ مجموعتي القصصية الأولى عام 2001 تحت عنوان:- (مأساة طائر)/ وقد نفدت من الأسواق\ كما صدر لي كتاب (إعلام المكفوفين والمعوقين في العراق) عام 2006، ثم صدر لي كتاب (المكفوفون بين التعليم والتأهيل) عام 2008وفي العام نفسه صدر لي كتاب (مع المعوقين)/ حكايات للأحداث\ نفد من الأسواق، وكان صدر لي كتاب للأحداث عنوانه:- (عمو سليم)/ نفد من الأسواق بعد صدوره بقليل\ ثم صدر كتابي (من ألطاف الترجمة) عام 2014، ثم كتابي (الثقافة بين الفلسفة والتعليم في عام 2015)، وأنا من كتاب مجلة حبيبي للأطفال.

- **لي أكثر من مجموعة قصصية منشورة في الصحف منها:ـ**

أ. عداد الأعمدة: منشورة في جريدة التآخي الغراء.

ب. بنات حواء: منشور جانب منها في مجلة (بغداد) الغراء وهي وقراؤها مهتمون بها جدا.

ج. مجموعة قصصية عنوانها (حكايات من بغداد الجديدة)، وهي مجموعة قصصية معدة للنشر نشرت الصحف بعضها.

د. (ورود وأشواك)؛ مجموعة قصصية معدة للنشر.

ه. النجاة في الصدق: رواية للأحداث منشورة على شكل حلقات في مجلة حبيبي وهي معدة للنشر؛ استثمرت التراث.
و. الأنبياء الكرام والتعويق، للأحداث؛ معد للنشر، وواضح أنه من التراث.
ز. من المعوقين، للأحداث؛ معد للنشر، وفيه أحاديث عن معوقي التراث.

هناك الكثير من مؤلفاتي غير المنشورة ومنها قصص وموضوعات شعبية منشورة لي في بعض الصحف والمجلات العراقية الغراء، وأهمها مجلة(التراث الشعبي) العراقية الغراء، أو هي معدة للنشر فيها أو في غيرها من المجلات التراثية الشعبية؛ عدا عن كتابي المعنون:- (التراث الشعبي وظيفته التعليمية)، وهو/ في جانب منه\ يستند إلى القصص الشعبي، وهو معد للنشر.

كما أن الجزء الأول من ثلاثيتي (*دولة المعوقين*) المعنون:- (ورود جد من بغداد) رواية معدة للنشر، ولها جزءان روائيان تاليان هما:- (نفحات جد من بغداد) و(مذكرات بغدادية) أو (مذكرات عمتي)، ومع أنها تروي/ أدبيا\ الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للعراق الحبيب ابتداءً من عام 1914 إلى 2014، فإنها تستلهم الكثير من التراث العربي العام والشعبي.

وقد حضرت أكثر من ثمانين مؤتمرا علميا ومهرجانا أدبيا وحلقة دراسية وورشة عمل ثقافية، بوصفي باحثا، بعض أبحاثي التي ألقيت فيها؛ كانت

تراثية متخصصة، أو في جانب منها تتعلق بالتراث، وقد نِلْتُ/ من أجل تلك المحاضرات والأبحاث العلمية\ الكثير من الشهادات والدروع التقديرية.

وقد نشرت أبحاثي مجلات علمية منها مجلتا (التراث الشعبي)، و(المورد) الغراوَين.

وأول موضوع في التراث الشعبي الصرف؛ نشرته لي مجلة (التراث الشعبي)العراقية؛ العددان التاسع والعاشر السنة 1984؛ تحت عنوان:- (ملاحظات حول التراث الشعبي)، وإذا كانت الأولية/ في المجلة مهمة\ فقد كان المقال الأول في العدد بين صفحتَي 7-12.

ألقيت محاضرات عديدة ولي أكثر من (ألف) مقال منشور في المجلات والصحف السيارة؛ العربية والعراقية؛ كان للتراث فيها شأن مهم؛ إضافة إلى أنني مدرس العديد من علوم الأدب العربي في قسمَي اللغة العربية في الكلية التربوية المفتوحة، وكلية الآداب/ جامعة الأكاديميين العرب سابقا، والمشرف اللغوي على مجلتها المحكمة.

هذا شيء من شأني التعليمي والعلمي والنقدي؛ الذي يوشك ألا يخلو شيء منه؛ من أثر تراثي.

- **أما عضويتي فأنا منتسب إلى:ـ**

أ. الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق الحبيب؛ منذ عام 1985.

ب. نقابة المعلمين.

ت. جمعية العلوم الاجتماعية.

ث. جمعية حقوق الإنسان، وغير ذلك.

- **أما خبراتي، فهناك الكثير ممن يستفيدون منها، ومنهم:ـ**

1. من خبراء المديرية العامة للمناهج في وزارة التربية العراقية.
2. من خبراء دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة العراقية.
3. من خبراء مجلة جامعة الأكاديميين العرب سابقا؛ المحكمة والمشرف اللغوي عليها، وغير ذلك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بغداد عصر يوم الثلاثاء 29/ 12/ 2015.

الدكتور/ الكفيف خليل محمد إبراهيم
أستاذ الأدبين الجاهلي والأندلسي في الكلية التربوية المفتوحة سابقاً
أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية في كلية الآداب جامعة الأكاديميين العرب سابقا، أديب و باحث ومفكر
البريد الإلكتروني: khmoib2005@yahoo.com.
النقال: 07708802132